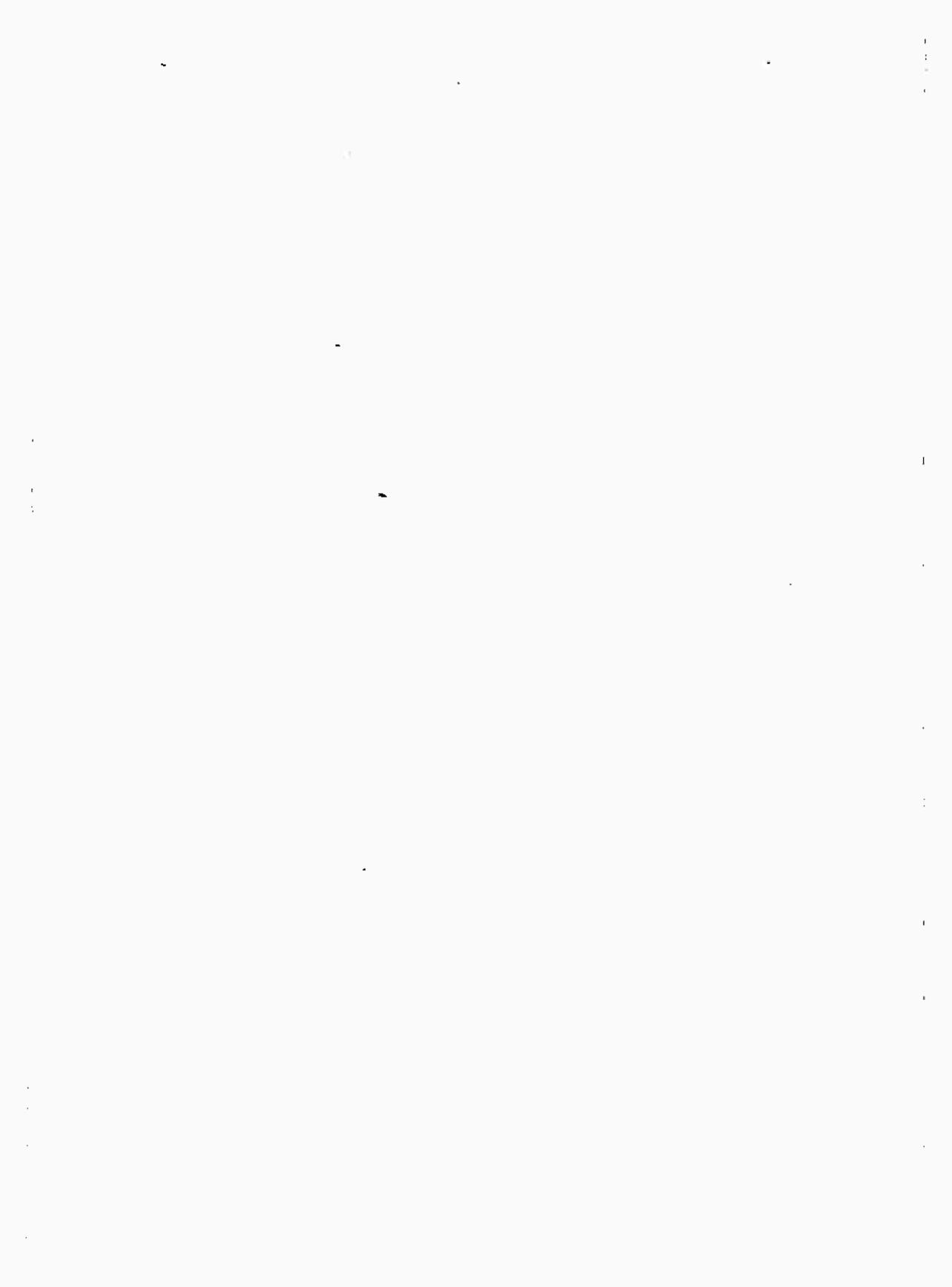


الفصل الخامس

أزمة الانتماء ... وأدوات تزييف الوعي

" فخلف كل قيصر
يمسوت ...
قيصر جديد "
أمل دنقل

- المبحث الخامس عشر : الدور الأيدلوجي للدولة .
- المبحث السادس عشر : الوعي الاجتماعي ... والوعي الزائف.
- المبحث السابع عشر : الرأسمالية المصرية ... وأدوات تزييف الوعي .
 - أولاً : المؤسسة التعليمية .
 - ثانياً : المؤسسة الدينية .
 - ثالثاً : المؤسسة الإعلامية .
- ١- السينما .
- ٢-التلفزيون والإذاعة .
- ٣-الصحافة والمسرح والكتاب .



يلتقى المواطن بالدولة فى حياته ومعاناته اليومية ، سواء كان هذا الالتقاء من خلال رموزها المباشرة ، (العمدة ، الشرطى .. الخ) ، أو من خلال الرموز السياسية ، (رئيس الدولة ، الحكومة ... الخ) ، لكنه قد لا يسأل نفسه - طوال حياته - عن مضمون هذه الدولة ، كما يتمنى أصحاب السلطة أن يظل المواطن فى إطار هذه الحالة ، يلتقى برموز الدولة ولا يسأل عن مضمونها ، يعانى من وجودها ويعتبر هذه المعاناة وهذا الوجود أمرا طبيعيا قدريا وأزليا .

ولكن ثمة مشكلة تحدث منذ البداية فى قلب هذه العلاقة بين المواطن والدولة ، فبينما يسعى أصحاب السلطة بوسائل متعددة إلى تصوير الدولة كخادم لكل المواطنين ، كدولة لكل الشعب ، لكل الطبقات ... الخ ، يلتقى المواطن بالدولة - غالبا - من باب وجهها القمعى ، بالتقائه فى مفردات وتفصيل حياته بأجهزتها القمعية ، بالرموز المباشرة للسلطة من خلال هذه الأجهزة .

يتعرف المواطن خلال هذه المفردات والتفاصيل ، وعبر التقائه بهذه الرموز على سطوة وجبروت وقدره الدولة ، يتعرف المواطن على الدولة كجهاز ملجأ بالسلاح ، فيتعرف على الدولة كأنطباع وتصور غامض - باعتبارها قوة متسلطة .

ولا يكون المسعى الاساسى لأصحاب السلطة متمثلا فى إنكار هذا الوجه القمعى للدولة ، بل فى تبريره .

إن العمل على تلطيف وتزويق الوجه القمعى للدولة يظل متجاورا مع إبراز قوة الدولة القمعية وقدرتها التسلطية الرادعة ، أى القادرة على حفظ النظام والأمن ، ويظل العمل على إبراز قوة الدولة وقدرتها أحد المساعى المحورية لأصحاب السلطان ، فى مواجهة الطبقات المحكومة ، بهدف ردع الأخيرة ، وإبراز ضعفها أمام قوة الدولة (١) .

إن المسعى الأساسى لأصحاب السلطة - كما قلنا - ليس إنكار صفة الدولة كقوة للقمع ، بل تبرير هذه الحقيقة المتجسدة فى الواقع العياني ، وتبرير الدولة الموجودة ، ويتم ذلك من الناحية الجوهريّة بتصوير وتقديم الدولة باعتبارها جهاز لكل الطبقات أى بإنكار المنشأ الطبقي والطبيعة الطبقيّة للدولة .

وعلىنا أن نضيف ، أن عملية تبرير الدولة بهذه الكيفية ليست عملية دعائية بسيطة ، بل عملية

معقدة تدخل فى صميم عملية الصراع الطبقي ولا تفصل عنها ، أى أن الجانب الدعائى السياسى المباشر لتبرير الدولة يتم فى الواقع على هامش هذه العملية الطبقيّة المعقدة، مستنداً على حقيقة وجود الطبقات الاجتماعية وقوة السلطة فى الواقع الاقتصادى - الاجتماعى مستنداً على قوة الطبقة المهيمنة اقتصادياً ، وبالتالى سياسياً عبر سيطرتها على جهاز الدولة .

كما علينا أن نضيف هنا أن عملية التمايز النسبى التى حدثت فى المجتمع الرأسمالى الحديث ، بين جهاز الدولة الرأسمالية والمجتمع المدنى^(٢١) ، أى بين العلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية عبر جهاز الدولة البيروقراطى ، وفتت العلاقات الإقطاعية والتطورات التى حدثت مع تطور أشكال الحكم وأشكال التنظيم السياسية الحديثة (ظهور الديمقراطية وحق الاقتراع العام وإمكانية تبادل السلطة ... الخ) ، قد أدت إلى إمكانية طمس المضمرن الطبقي للدولة ، وسهلت تقديمها لكل الطبقات باعتبارها دولة شعبية ، دولة كل الشعب على الرغم من حقيقتها كدولة لرأس المال .

ولا يستهدف هذا الفصل إعادة طرح موضوع الدولة ، إلا بهدف تلمس ملامح وآليات دورها الأيدلوجى فى المجتمع ، أى دورها وآليات عملها لتزيف الوعى الطبقي للطبقات المحكومة ، وفى سبيل هذه المهمة المحددة رأينا تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث . يتعرض الأول لبعض الإشارات الجوهرية حول الدولة والدور الأيدلوجى للدولة ، ويتعرض الثانى للوعى الاجتماعى، ويتعرض المبحث الثالث لأهم الأجهزة الأيدلوجية للدولة باعتبارها أدوات التأثير فى الوعى الاجتماعى عبر عمليات التنشئة الاجتماعية والسياسية للمواطنين .



المبحث الخامس عشر الدور الأيدلوجي للدولة

يرتبط ميلاد الدولة ، منذ أقطابها الأولى ، بتدهور المجتمعات المشاعية البدائية وتحول العلاقات القائمة على روابط الدم إلى علاقات وصلات اقتصادية داخل مجموعات أعرض من الأسر والقبائل أي بنشأة الملكية وانتقام الثروة وتملك العبيد ، أي بنشأة الطبقات والعلاقات السياسية .

وقد قام أنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) بتتبع ودراسة انحلال المجتمع المشاعى القديم ، وعمليات تراكم الثروات وانتقام الطبقات ونشأة الدولة، مستندا إلى الأبحاث الهامة لهنرى مورجان (١٨١٨-١٨٨٨) ^(٣) حول عشائر الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ، ومضيفاً إليها الاكتشافات التى كانت متوفرة آنذاك عن القبائل القديمة ، وأعاد تركيبها وتحليلها مقدما أسس الارتباط بين السلطة والثروة ، ومقدما الأسس الطبقة لنشأة الدولة .

وحسب أنجلز ، فإن تشكل أرسوقراطية تحوز الثروة وتركز السلطة الاجتماعية فى أيديها ، ظلت دائما المؤشر الأول لظهور الدولة ، لترتبط الدولة منذ نشأتها بحاتزى الثروة ، ولتظل بعد ذلك الحقيقة الجوهرية لارتباط ميلاد الدولة بعملية الانقسام الطبقي وتكشف عن الطبيعة الطبقة للدولة ^(٤) .

وقد ظلت هذه الحقيقة الجوهرية مجالاً لدراسات جديدة يقوم بها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسياسية على اختلاف منابهم وتوجهاتهم الفكرية ، يتتبعون فيها عمليات التحول والانقسام الطبقي للقبائل فى أفريقيا والهند القديمة ، ويتتبعون من خلالها مظاهر نشأة الدولة وأهم ملامحها الأولى ^(٥) .

كما أن هذه الحقيقة الجوهرية لا تتناقض مع تنوع أشكال وملامح نشأة الدولة بفعل الاختلافات البيئية خاصة بين الشرق والغرب ، بين بلدان الرى النهري وبلدان الرى الطبيعى ، فعلى قاعدة من تلك الحقيقة الطبقة لنشأة الدولة يضيف ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) دور تلك الظروف البيئية الخاصة ببلدان الرى النهري ، كأساس لترتيب وطيفة اقتصادية مبكرة للدولة فى الشرق (خاصة مصر والهند وبلاد ما بين النهرين وإيران) باعتبارها عوامل ساهمت فى الميلاد المبكر للدولة المركزية المتميزة بتضخم جهازها البيروقراطى الموظف للعناية بالأشغال العامة وبناء القنرات والسدود والتحكم فى توزيع المياه وزراعة الأرض ^(٦) .

ومنذ أن وجدت الدولة وأصبحت حقيقة واقعة ، جرى التعامل معها والتعرف عليها من خلال دورها الذى تقوم به ومن خلال أجهزتها ، العسكرية والمدنية . فتتعرف الدراسات الاجتماعية والسياسية والتاريخية على هذا الدور - كمضمون للدولة - من خلال التعرف على التاريخ الاقتصادى الاجتماعى كتاريخ لصراع الطبقات وليس كتاريخ لما يقوله أصحاب السلطة عن أنفسهم وعن دولتهم . إن الصراعات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية والأيدلوجية تدور دائما حول الدولة . حول من يسيطر على جهاز الدولة ، وينبئنا التاريخ المكتوب عن حقيقة دامغة تقول : إن الدولة تصبح تحت سيطرة من يحسم الصراع لصالحه ، سواء جرى فى خضم هذا الصراع تغيير جذرى للدولة القديمة وإنشاء دولة جديدة أم جرت السيطرة على نفس أجهزة الدولة القديمة وتعديلها بما يخدم مصالح السلطة الجديدة وينبئنا هذا الصراع حول الدولة عن تلك العلاقات الجدلية بين الثروة والسلطة ، حيث السيطرة على الثروة كمجال للسيطرة الاقتصادية تستدعى ضرورة الهيمنة السياسية لحماية الثروة المكتتزة ، أى ضرورة السيطرة على جهاز الدولة .

وبالطبع فإن هذا الصراع حول الدولة تتحكم فيه جملة من الشروط الموضوعية والذاتية ، على اعتبار أن الصراعات الاجتماعية الكبرى التى تحسم نتيجتها بصعود طبقة جديدة إلى الحكم ، ليست مجرد نزاعات إرادية لمجموعة من البشر حول دولة من الورق ،

ولكن ما يمكن استخلاصه من ذلك هو التعرف على الطبيعة الطبقيّة للدولة ، تلك الطبيعة التى يمكن قراءتها فى جدل العلاقة بين الثروة والسلطة ، بين الهيمنة الاقتصادية والهيمنة السياسية ، كما يمكن قراءتها فى حقيقة وجود الصراعات الاقتصادية والسياسية والأيدلوجية فى المجتمع ، أى فى حقيقة اختلاف وتعارض المصالح الطبقيّة ودور الدولة فى هذا الصراع الطبقي ، كما يمكن قراءة ذلك فى كل عصور ما بعد المشاعية البدائية ، فى القول بضرورة وجود الدولة ، كما فى الصراع من أجل الدولة .

* * *

الدولة العربية أيضاً - إذا جاز التعميم - تدعى أنها تجسيد للإرادة الشعبية ، إنها ككل دولة منذ أن أنشئت الدولة يتمحور دورها الأيدلوجى فى العمل على أن تختم بخاتم الاعتراف العام من قبل المجتمع الاشكال القائمة لتحصيل الثروة ، أى لتثبيت وتخليد الانقسام الطبقي ، وحق الطبقة المالكة فى استغلال الطبقات غير المالكة ، وسيادة الأولى اقتصاديا وسياسيا وأيدلوجيا .^(٧)

ولكن جهاز الدولة العربية المعاصرة يحمل معه تراثه التاريخى ؛ السلطانية الملوكية والمركزية البيروقراطية العتيقة الملكية الوراثية والوظيفة الاقتصادية المركزية ، كما قامت الظروف المحلية والدولية بطبع نشأة وتطور نمط الإنتاج الرأسمالى فى المجتمعات العربية بطابع الضعف والتشوّه والتخلف ، وطبع الهرجوازيات العربية بنفس الطابع مدخلة فى صميم تكوينها الموروث

التاريخي المتحول في صور عصرية ، وانعكس ذلك على طابع الدولة العربية المعاصرة وأشكال حكمها ونظمها السياسية .

لذلك فإننا نتعرف في الدولة العربية على تضخم أجهزتها القمعية ، وعلى ضعفها المرتكز على ضعف وتخلف الطبقة الرأسمالية ، وبالتالي نتعرف على عنفها غير العاقل في مواجهة ليس الطبقات الشعبية فحسب بل أيضا في مواجهة قطاعات من الطبقة البرجوازية المالكة غير المشاركة في الكنتلة الحاكمة ، غير المشاركة في السلطة السياسية ، مولدة معارضة سياسية من هذه القطاعات للكنتلة الطبقيّة الحاكمة (الوفد مثلا) .

وفي هذا الإطار فقط . نستطيع أن نفهم تعميم الباحث التونسي هشام جعيط حين يقول "إن الدولة العربية مازالت لا عقلانية ، واهنة ، وبالتالي هتيفة ، مرتكزة على العصبية والعلاقات العشائرية ، على بنىة عميقة للشخصية" فالدولة العربية الحديثة - في مصر على سبيل المثال - تنتمي إلى نمط الدولة الرأسمالية ، ليس فقط بقيامها على قاعدة من سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي ، وتفتت العلاقات الطبقيّة القطاعية ، وسيادة العمل المأجور ، بل لانفصال جهازها السياسي عن العلاقات الاقتصادية المباشرة ، على الرغم من بروز طابعها التدخلّي في شكل نظام رأسمالية الدولة ، وغلبة أشكال الحكم الفردية وتخلف النظام السياسي . *

وعموما فإن الدولة الرأسمالية ترتكز على هذه القاعدة من انفصال جهازها عن العلاقات الاقتصادية المباشرة في القيام بدورها الأيدولوجي ، السياسي والقانوني ، بالعمل على إبقاء تفتت الطبقات المحكومة كأفراد أمام الدولة ، هذا التفتت وجهه الآخر هو العمل على خلق إجماع هؤلاء المواطنين الأفراد ، حول النظام ، أي كسب ولاء الأفراد للدولة ، وضرب الوعي بولاتهم لطبقاتهم ، والبرجوازية مرتكزة على سلطة الدولة لا تقوم بهذا الدور المزدوج كدعاية فقط ، بل كدور في الصراع السياسي والأيدولوجي ، أي كعمل معقد في قلب عملية الصراع الطبقي . أي كقمع ، وكتزييف للوعي الاجتماعي^(٨) .

قبل نمط الدولة الرأسمالية تتداخل المستويات الاقتصادية والسياسية والأيدولوجية ، تنحل الدولة كلية في الأجهزة القمعية ، وكدولة سلطانية وملكية وراثية ، ورغم ذلك نستطيع التعرف على الدور الأيدولوجي للدولة ، ولكن كأيدولوجياً جاهزة ، مورثة ، منحلة في الجهاز القمعي السلطاني ، في الملك بوصفه (الإله - الملك) ، أو بوصفه (ابن الإله) ، أو بوصفه ظل الله في الأرض ، أو يحكم باسم الألهة ، أو باسم الدين ... الخ .

ومنذ أن نشأ الفكر السياسي والاجتماعي بحث المفكرون عن شرعية أيدولوجية للدولة ، عن وجه

* لا نعرف - على الصوم - دولة رأسمالية لا تتدخل في الاقتصاد سوى في شكلها الليبرالي وهو شكل لا يستوعب نمط الدولة الرأسمالية كما أنه لا يصمد أمام تحول النظام الرأسمالي إلى الرأسمالية الاحتكارية ثم إلى رأسمالية الدولة الاحتكارية .

أديب ، أوصى أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق م) بتوجيه التعليم ، وجذب جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)
تأسيس دين مدني ، ولاحظ ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وميكيا فيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) أن
الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية .

في المجتمع الرأسمالي تمايزت مستويات الصراع الطبقي وتمايزت بالتالي - أجهزة هذا الصراع
وتميزت الدولة الرأسمالية بأجهزتها السياسية والأيدلوجية ، النيابية والتربوية والإعلامية ... الخ .
أي تميز الدور الأيدلوجي للدولة ، فنستطيع التعرف عليه عبر دور هذه المؤسسات المعاصرة والمستقرة ،
أي عبر دورها في عمليات التنشئة الاجتماعية وتوجيه الرأي العام (صحافة - إذاعة - تليفزيون -
سينما - ... الخ) وتشكيل الوعي الاجتماعي .



المبحث السادس عشر

الوعي الاجتماعي والوعي الزائف

الوعي الاجتماعي إذاً هو جملة الآراء والمفاهيم والأفكار والتصورات ، والنظريات السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والفلسفة والأخلاق والدين ، المثلة للجانب الروحي من حياة المجتمع . ومن الناحية الجوهرية نستطيع التعرف على تبعية الوعي الاجتماعي للوجود الاجتماعي ، فالبشر إذ يطورون إنتاجهم المادى وعلاقات الإنتاج ، يغيرون من تفكيرهم ونتائج تفكيرهم أى يشكلون الوعي ويطورونه .

ولكن هذه العلاقة الأساسية ليست علاقة تبعية ميكانيكية بسيطة ، بل معقدة وجدلية ، يكتسب فيها الوعي الاجتماعي استقلالية نسبية تمكنه من إعادة التأثير فى الوجود الاجتماعي وتطويره ، كما أن عملية تشكيل الوجود الاجتماعي للوعي ليست مجرد عملية عفوية مباشرة فقط ، بل يؤثر الوجود الاجتماعي بطريقة حاسمة فى أذهان الناس من خلال حشد من الروابط المتوسطة مثل الدولة ونظام الدولة والعلاقات القانونية والسياسية ، أى تجرى عملية إعادة تشكيل الوعي بطريقة منظمة .

كما أن الاستقلالية النسبية للوعي وإمكانياته فى التأثير فى الوجود الاجتماعي يمكن التعرف عليها أيضاً من خلال تعقد بنية الوعي الاجتماعي نفسه ، ودور بعض مكوناته النظرية كالمفاهيم العلمية والفلسفية والفنية ، تلك التى تتوقف فى تطورها على جملة من المعطيات المتراكمة ، ويخضع تطورها بشكل كبير على الجهود العلمية ، والمنظمة المرتكزة على الاستيعاب النظرى لتطور العلوم الطبيعية والاجتماعية الخ ، أى القائمة على جهد فكرى منظم .

* * *

وبالنظر إلى بنية الوعي الاجتماعي ، نستطيع أن نميز بين مجالات ثلاثة ودرجات ثلاثة للوعي ، تتمثل فى السيكولوجيا الاجتماعية والأيدلوجية والعلم ، كما نستطيع التمييز بين أشكال (أنواع) مختلفة للوعي الاجتماعي ، مثل الوعي السياسى والوعي الحقوقى (القانونى) والوعي الأخلاقى والوعي الفلسفى والوعي الجمالى والوعي الدينى^(٩) .

ولا يرجع مثل هذا التمييز بين مجالات وأشكال الوعي بسبب وجودها متجاورة ، بل بسبب إمكانيات رصد الاختلافات والطرق الخاصة لتكون كل منها داخل بنية الوعي ، وسبب خصوصية كل

منها في العمل والانتشار والتأثير في الجماعات والطبقات الاجتماعية ، وقدرة كل شكل منها على التأثير في الأشكال الأخرى للوعى .

وعلى سبيل المثال نستطيع تمييز الوعى السياسى ، من خلال ذلك الدور المتميز للأيدولوجية السياسية ، باعتبارها مجموعة الآراء التى تجسد نظرياً السياسة التى تنتهجها طبقة معينة تجاه الطبقات الأخرى ، وباعتبارها الأيدولوجية التى تحدد بنية الدولة ومضمون نشاطات أجهزتها ومؤسساتها ، أى من خلال عكسها المباشر لمصالح طبقة ما فى أشكال منظمة ومجسدة نظرياً .

كما أن هذه السمات الخاصة للوعى السياسى ودوره المؤثر ، تبتثق من حقيقة أن الأيدولوجية السياسية تمثل تلك الحلقة الوسيطة التى تربط البنية التحتية الاقتصادية بكل البنية الفوقية الأيدولوجية ، فهى إحدى أشكال الأيدولوجية الأكثر صلة بالاقتصاد وتعكسه فى شكل أشد تركيزاً ، ونتيجة لذلك ، فإن أى أيدولوجية سياسية لا بد وأن تترك بصماتها على العناصر الأخرى للبنية الفوقية ، على الأشكال الأخرى للوعى الاجتماعى ، فتضفى على هذه الأشكال الأخرى اتجاهها أيدولوجياً عاماً (١٠) .

كذلك يمكن التمييز بين ثلاثة مجالات للوعى الاجتماعى ، تمثل فى تفاعلها وتكاملها بنية الوعى الاجتماعى المنعكس - جدليا - عن الوجود الاجتماعى ، هى السيكولوجيا الاجتماعية والأيدولوجيا والعلم .

فالوعى الاجتماعى هو البنية الفوقية والروحية للمجتمع ، لا يبتثق منه جملة الآراء والمفاهيم أو الأفكار كتنظريات متبلورة تعبر عن الطبقات الاجتماعية بصورة عفوية ، بل يقوم مفكرو الطبقات وطلاتها المثقفة ببلورة جملة الآراء والمفاهيم المعبرة عن المصالح الطبقيّة فى صورة نظريات سياسية وقانونية ... الخ تقوم على الرؤية المنطقية والتحليل والبرهنة كأيدولوجية ، وكذلك لا ينشأ العلم القائم على البحث والبرهان والتجريد بصورة عفوية .

إن ما ينشأ عقرباً من الناحية الجوهرية هو الوعى العفوى للجماهير ، هو الرؤية العفوية المنبثقة مباشرة عن التجربة الحياتية والمعيشية أثناء عمليات الصراع الطبقيّ الاقتصادى ، فيظهر هذا الوعى التلقائى فى صور من المشاعر والأحاسيس والآراء والأفكار الغامضة ، كما يعبر هذا الوعى العفوى عن نفسه فى صور من التحركات العفوية للصراع التى تنتج داخلها جنين الوعى الطبقيّ .

ويعبر عن هذا الوعى العفوى الجماهيرى بما يحمله من أجنة الوعى الطبقيّ بمصطلح السيكولوجيا الاجتماعية .

وهذه السيكولوجيا مشبعة فى الواقع بالأيدولوجيا ، ذلك أنها محتوى - مع المشاعر والأحاسيس والرؤى العفوية - على جملة من الآراء والأفكار والقيم الطبقيّة ، سواء المتكونة عفوية كأجنة للوعى الطبقيّ أو المنقولة عبر عمليات التنشئة الاجتماعية والسياسية وعمليات البحث الأيدولوجى لأفكار

الطبقة المهيمنة فى المجتمع عبر الأجهزة الإعلامية والتربوية ... الخ ، وعبر تأثير المعارف العلمية التى تحظى بالانتشار عبر أدوات النشر المختلفة .

وتظل هذه الدائرة من مجالات الوعى الاجتماعى مجالاً للتأثير الايدلوجى عبر عمليات الصراع الطبقي السياسى والايدلوجى ، سواء بهدف إبقائه كسيكولوجيا مشبعة بالرؤى الغامضة بعيداً عن إمكانيات تطوره كوعى طبقي متبلور ، أو بهدف تخليصه من الأوهام والرؤى الزائفة وتطوره ليصبح وعياً ذاتياً ، أيدلوجياً ، طبقياً ، لطبقات لا تقف عند مجرد وجودها الاجتماعى كطبقات فى ذاتها ، بل تتحول لطبقات لذاتها ، أى طبقات واعية وعياً حقيقياً بمصالحها وأهدافها .

* * *

وتقوم الطبقة البرجوازية فى المجتمع الرأسمالى بكبح ومقاومة إمكانيات تطوير الوعى الطبقي للطبقات الشعبية بوجه عام ، وللطبقة العاملة على وجه الخصوص ، وذلك بالصراع من أجل استمرار الوعى الاجتماعى عند درجة السيكلوجيا ، المتخلصة من جنين الوعى الطبقي الناشئ ، عنفويا ، والمشبعة بالأفكار والآراء البرجوازية، أى بالصراع من أجل سيادة الوعى الزائف فى المجتمع .

وتقوم البرجوازية بهذا الصراع معتمدة على سيطرتها على جهاز الدولة أى عبر امتلاكها لأدوات إنتاج الفكر البرجوازي وأجهزة تسييده فى المجتمع، فتتعرف من خلال ذلك على حقيقة أن الأفكار السائدة فى المجتمع هى أفكار وآراء الطبقات المهيمنة اقتصادياً وسياسياً^(١١) .

ولأن البرجوازية تقوم بهذا الدور فى صراع مع الأفكار والآراء ، والنظريات المعبرة عن مصالح الطبقات الشعبية فإن دورها يظل مشبعاً بالقمع ، فى سبيل إجهاض إمكانيات بروز أجنة الوعى الطبقي عبر الحركات والنضالات العنوية ، أى فى سبيل إجهاض تحول الصراع الطبقي الاقتصادى إلى صراع طبقي سياسى .

وأيدلوجياً تقوم البرجوازية بتقديم أيدلوجيتها المعبرة عن مصالحها الاقتصادية والسياسية وتعمل على تسييدها باعتبارها أيدلوجية كل الطبقات المتعارضة المصالح والأهداف ، أى تقلم البرجوازية وعيها الطبقي فى صورة وعى لا طبقي ، وإذا نظرنا إلى هذه العملية الأيدلوجية كعملية طبقية واعية من قبل البرجوازية تعرفنا على هذا الوعى المقدم للجماهير كوعى كاذب .

إن عملية تسييد هذا الوعى البرجوازي الزائف فى المجتمع بكل تفاصيل وآليات نشره هى ما يمكن النظر إليها كعملية تجزئة وتشويه لحقائق المجتمع وتزييف لمصالح الطبقات المحكومة، كعملية تزييف للوعى الاجتماعى .

ومن الناحية الجوهرية تسعى عملية تزييف الوعى هذه إلى إبقاء الطبقات الشعبية كمجرد طبقات فى ذاتها ، لا بالحيلولة دون تحولها إلى طبقات لذاتها تمتلك الوعى الطبقي الحقيقى بمصالحها الاقتصادية والسياسية فحسب ، بل وتكرس تفتت هذه الطبقات إلى أفراد متنافسين ومعزولين فى مواجهة الطبقة المهيمنة ، فى مواجهة سلطة الدولة .



البحث السابع عشر الراسمالية المصرية وأدوات تزييف الوعي .

تميزت المجتمعات الرأسمالية عن مجتمعات ما قبل الرأسمالية بامتلاكها لمنجزات التقدم الاجتماعي والتطور الصناعي ، وقد انعكس هذا التطور على جهاز الدولة بصورة لم يسبق لها مثيل ، فقد انعكس هذا التطور على أجهزة الدولة العسكرية (الجيش والبوليس) وعلى أجهزتها الأيدلوجية، التربوية والإعلامية ... الخ كما تظهر الدولة كآلة بيروقراطية ضخمة تجند المواطنين من كافة الطبقات لتسيير هذه الآله .

وفى ظل هذا الوضع ، تتولى الدولة - بكفاءة أكثر من ذي قبل - عملية تشكيل الوعي الاجتماعي ، فتتمكن البرجوازية عبر الأليات والأدوات الحديثة للدولة من تسييد أيدلوجيتها فى المجتمع بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، بطريقة أكثر مواربة عن ذي قبل ، وأكثر كفاءة من ذي قبل .

وتقوم المؤسسات التربوية والإعلامية والدينية - كأجهزة أيدلوجية ثابتة ومستقرة - بدورها فى هذا المجال عبر عمليات التنشئة الاجتماعية والسياسية للمواطنين ، كأجهزة تُحمل رسائلها التربوية والإعلامية والأخلاقية مضمون - وتفاصيل - الرسالة الأيدلوجية للبرجوازية المهيمنة اقتصادياً فى المجتمع .

وفى هذا الإطار ، سوف نقوم فى هذا البحث بالتعرض لكل من المؤسسة التعليمية ، والإعلامية والمؤسسة الدينية ، فى سبيل الكشف عن المحاور الأساسية لأليات عملها باعتبارها أدوات أيدلوجية للدولة ، وباعتبارها حاملة لأيدلوجية الطبقة المهيمنة اقتصادياً وسياسياً فى المجتمع المصرى .

أولاً: المؤسسة التعليمية

تنهض المؤسسة التعليمية - المدرسة والجامعة - بدورها الطبقي فى المجتمع الرأسمالى باعتبارها جهازاً مشبهاً بالوعي السائد فى المجتمع ، جهازاً محملاً بالأيدلوجية السائدة، جهازاً موجهاً لعملية تربيته واعية، لعملية تنشئة اجتماعية واعية، وذلك بهدف تسييد أو إنشاء منظومات معينة من القيم، وإكساب التلاميذ لبعض المعارف العلمية والمهارات الفنية الضرورية لإتشاء الكوادر الفنية ، لتغذية مؤسسات الإنتاج القائمة وتغذية الجهاز البيروقراطى للدولة .

وخلف دور المدرسة المتمثل فى تقديم بعض المعارف العلمية واكساب التلاميذ لبعض المهارات الفنية ، وترتيب المواطنين بإعطائهم الشهادات الدراسية الضرورية لعملية التوظيف فى المجتمع الحديث ، يتخفى الدور الطبقي والأيدلوجى للمؤسسة التربوية . فتقدم العملية التربوية باعتبارها مجرد عملية تعليم محايدة وموضوعية لكافة طبقات الشعب ، ومجرد إمكانية موضوعية لعمليات الترقى الطبقي وتحسين ظروف المعيشة لأبناء الطبقات العمالية والفلاحية... الخ .

وتنفذ هذه الصورة عن التعليم إلى عقول التلاميذ ، وكذلك إلى رجال الفكر التربوى ، مكونة قاعدة للوعى الزائف بالعملية التربوية ودورها الاجتماعى ، وتنهض فوق هذه القاعدة جملة من الأوهام حول موضوعية وحيادية المناهج الدراسية ، ليتمكن الفكر التربوى التقليدى - من إعادة نشر هذه الأوهام فى صور من النظريات التربوية المحلاة بطرائق البحث العلمى والمطعمة بالدراسات النقدية لبعض الجوانب الفنية والجزئية فى العملية التعليمية مساهما بذلك فى تكريس الوعى الزائف وتمرير الأيدلوجيا السائدة . (١٢)

وتدخل العملية التربوية من خلال هذه الصور الزائفة فى الوعى الجماهيرى كأيدلوجية سائدة ، كوعى مقلوب وكاذب وتتدعيم هذا الوعى الزائف لجملة أخرى من الأفكار السائدة حول التعليم ، مثل تقديم العملية التعليمية باعتبارها مفتوحة أمام الجميع بشكل متساو بغض النظر عن الإمكانات المادية للطبقات ، وباعتبار نتائجها الدراسية ليست سوى تعبير عن اختلافات الذكاء بين التلاميذ وبالتالي اختلاف قدراتهم العقلية على التحصيل العلمى واستيعاب المعارف العلمية والمهارات الفنية التى تقدمها المناهج الدراسية... الخ ، وتصل هذه الأفكار إلى ذروتها فى اعتبار العملية أداة "محايدة" لعمليات الترقى الطبقي للجميع ، لتختفى خلف هذه الأفكار أوضاع التمايز الاجتماعى فى المجتمع ، وانعكاسها على العملية التعليمية ، كما يتخفى دورالنظام التعليمى فى تكريس هذه الأوضاع الطبقي وإعادة إنتاج التمايز الطبقي فى نفس الوقت .

ويمكننا التعرف على هذا الدور الطبقي كنتيجة لتفاعل أوضاع التمايز الطبقي والنظام التعليمى القائم فى ظاهرة التسرب من المدارس ، حيث تؤكد الدراسات التى أجريت على هذه الظاهرة للعام الدراسى ١٩٧٧/٧٦ فى مصر - على سبيل المثال - ان أعلى نسبة للتسرب كانت من أبناء الفلاحين ٤٥.٦٪ وأقل نسبة كانت بين أبناء التجار ٣.٤٪ أما أبناء العمال فكانت نسبة التسرب بينهم ٣٢.٦٪ وأبناء الموظفين ٦.٧٪ ، كما وجد أن المتسربين لا يوجد بينهم حالة واحدة للوى الدخل المرتفع ، بينما كانت نسبة التسرب ٣٧.٥٪ للوى الدخل المتوسط ، و ٥٦.٢٪ للوى الدخل المنخفض (١٣)

كما لا تنف ظاهرة التسرب عند المرحلة الابتدائية ، بل تمتد للمرحلة الإعدادية ، ويشير تقرير البنك الدولى - فى هذا الصدد - إلى أن من لجحوا فى الصف السادس الابتدائى عام ١٩٧٤/٧٣ كانوا ٧٣٪ لم يلحق منهم بالمرحلة الاعدادية فى ١٩٧٥/٧٤ إلا ٣.٣٪ فقط ، وأن الذين لجحوا

فى إقام الشهادة الاعنادية ١٩٧٥/٧٤ كانوا ٦٦.٧٪ من الالبن أقدموا للامتحان . لم يلتحق منهم بالمرحلة الثانوية سوى ٥٦.٣٪ فقط .^(١٤)

كما يقوم نظام التعليم الثانوى بدوره الطبلى عبر انقسامه بين مدارس فنية لإعنااء العمال المهرة ومدرسة ثانوية عامة تمثل دور الحلقة الالراسية الوسيطة للالتحاق بالتعليم الالجامعى.^(١٥)

وتؤدى الأوضاع الطبلىة السائئة إلى حصر مدارس التعليم الفنى لأبناء الفقراء . فى نفس الوقت الذى يؤدى فىه غياب فرص العمل لالخرىجى الالجامعات إلى عملية نمايز طبلى تلقى بعنابها على أبناء الفقراء . الالذين يتمكنون من الالتحاق بالالجامعة والحصول على شهادات الالانخرج فىها . بل وأبضاً بخضوع فرص العمل وإمكانىيات الالترقى الطبلى (الواسطة والمحسوبىة) لالاجابات مالكى الثروة والسلطة فى المجتمع.^(١٦)

كما يظل نظام التعليم فى المجتمع - بمارسه وجامعاته - أءاة لالخلق الالتماىز بين العمل الالذهنى والعمل العضىلى بما ىمله هذا الالتماىز من نموذج لإعنااء إنتاج البناء الطبلى إلى مءاه فى الالبلدان الالراسمالية الالمتخلفة والالنابعة وفى ذلك الالتمىىز الذى يتم بين لالخرىجى المدارس النظامىة ومدارس اللغات . وبين لالخرىجى الالجامعات الوطنىة والالأجنبىة خاصة الالجامعة الالأمركىة وقد أصبح هذا الالنموذج الالأخىر واضعاً فى مصر مع بءه الالانفتاح على الغرب وضوحاً فقطاً والالجدىر بالالذكر أنه خلال السنوات الممتدة من عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨٢ بلغ عءء المصرىىن الالدارسىن فى الالولايات الالمتحدة سواء فى صورة منح أو بعثات علمىة (تتراوح مءتها من شهرىن إلى خمس سنوات) أكثر من ٧٠ ألف طالب مصرى سنوياً . وهو ما ءفع الالمسؤلون الالأمركىىن بالالسفارة الالأمركىة بالالقاهرة لالأسىس ما سىمى "الالحماء الالدارسىن المصرىىن بالالولايات الالمتحدة الالأمركىة" وءءءت له أءوار اجامعىة وثقافىة ءءفع بالانجاه الالولا . والالانتماء الالثقافى والسىاسى من جانب الالنخبة المصرىة الالمتقفة للسىاسة الالأمركىة وللنموذج الالأمركى . لكشف الالدراسات التربوىة المعاصرة عن وظىفة النظام التربوى وءوره الالفعال فى تولء البناء الطبلى فى المجتمع الصناعى . فالهزم الطبلى لىس مجردة محصلة لبناء علاقات القوى المرتبطة بتموزىع السىطرة فى المجال الالاقتصادى . بل إن ظروف تولء هذا النظام له صلة وثىفة بءور المؤسسات التربوىة . فبرغم شعارات "ءىموقراطىة التربىة" و"تكافؤ الفرص التعليمىة" الاللى تروج لها الأنظمة التعليمىة الالمختلفة فى معظم بلدان العالم . فإن التربىة فى واقع الأمر ءضطلع بمهمه انقاء اجامعى مؤسس على معابىر ثقافىة للطبقة السىطرة . ولذلك فإن وظىفة نقل المعرفة الاللى تقوم بها الالمنءسة ءستخء لمسانءة الالصفوة الالاجامعىة . وموازرتها للحصول على القوة بواسطة الالانجاح الالمدرسى . وقارس الالمنءسة هذه الالمهمه بىنجاح باهر بآىء أنها ءحظى بالقبول والالأسىء من قبل هؤلاء الالمستبعءىن والمرفوضىن والمهملىن كىنتىجة لعملىة تربوىة أىءولوجىة ءفضى ءوما إلى السماح للقلة من الالأفراد الالمتكاملىن مع قىم الطبقة المهىمئة للوصول إلى أعلى المراتب التربوىة وأبضاً إلى قمة الهرم الالاجامعى .

وأسوأ ما تقوم به التربية الأيدلوجية هو حجبها لأليات عملها التي تولد ظروفًا تحافظ على استمرار النظام الطبقي عن وعى جماهير الطلاب بشكل عام ، والطلاب المتضررين من النظام التعليمي بشكل خاص ، فالطلاب من الطبقات الشعبية الفقيرة يصفون شرعية على كل من الهرم الاجتماعي والهرم التربوي حين يفسرون ظروفهم الاجتماعية الفقيرة بفشلهم الدراسي . ومن خلال هذا الدور الطبقي - الأيدلوجي للتعليم ، نستطيع التعرف على التربية كأهم ميدان من ميادين العنف الرمزي ، في مقابل العنف البدني ، ففي ظل النظام الديمقراطي الحديث تعتمد الطبقات المسيطرة على النظام التربوي كمؤسسة للعنف الثقافي من أجل المحافظة على سيطرتها الاجتماعية والاقتصادية ، فتثاقف الطبقة المسيطرة يتم تعريفها وتقديمها بوصفها " الثقافة " العامة لكل طبقات المجتمع ، ومنها يشتق محتوى التعليم الذي ينتقل إلى كل الفئات الاجتماعية من خلال النظام التربوي وما يحتويه المنهج من معرفة ^(١٧) . وفي هذا الإطار يقوم المنهج المدرسي بحمل أيدلوجية الطبقة المهيمنة في أشكال من ترتيب القيم الاجتماعية في تفاصيل مواد المنهج بهدف تثبيت وإعطاء مشروعية لبعض القيم السائدة كالعلاقة بين الرجل والمرأة ، بين الكبير والصغير والغنى والفقير ... الخ وتقديم تفسيرات الطبقة المهيمنة للظواهر الاقتصادية والاجتماعية تكشف عنها دراسات تحليل المضمون لهذه المناهج ^(١٨) كما لا يخلو المنهج المدرسي من التوجيهات السياسية المباشرة لأصحاب السلطة السياسية لتبرير العلاقات الاجتماعية وتوجهات الحرب والسلام للحكومات القائمة ، ولذلك تخضع هذه التوجهات الموجودة في مواد المنهج للتعديل والتبديل وفقاً لتغيير التوجهات السياسية والحكومية مثل الانتقال من العداة للصالح مع العدو الصهيوني وتبدل العلاقات الخارجية مع الشرق أو الغرب .. الخ . ولا يقوم المنهج المدرسي بدوره الأيدلوجي عبر احتوائه على أنواع معينة من المعارف العلمية والتاريخية والمجتمعية المجزأة والمشوهة فقط ، بل وبعدم احتوائه - أي إخفائه - لأنواع معينة من المعرفة ومن الحقائق التاريخية أيضاً .

وعلى سبيل المثال - لا الحصر - نجد أن كتاب التاريخ للصف الأول الثانوي يتضمن موضوعات تاريخية عن بعض الثورات الاجتماعية والسياسية دون غيرها ، فنجد موضوعات عن الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية مثلاً دون أي موضوع أو إشارة للثورة الاشتراكية الروسية مثلاً وكان مؤلفو هذا الكتاب قد وضعوا في أوائل الستينات فصلاً عن الثورة الاشتراكية ، ولكن المسئولين في وزارة التربية في مصر حينئذ تمكنوا من حذف هذا الفصل قبل ان يرى النور ، وبرزوا ذلك الاتحياز الأيدلوجي بحمايتهم للأجيال الناشئة من "خطر" هذا اللون من المعرفة مؤكداً عدم حيادية المنهج عن طريق هيمنتهم في تحديد ما يجب أن يقلم وما يجب ان يخفى عن وعى التلاميذ حتى في إطار حقائق التاريخ البشري .

* * *

ويكتمل دور العملية التربوية الأيدلوجي المستهدف لتزيف الوعي الاجتماعي في المجتمع
الرأسمالي بآليات تقديم هذه المعرفة المحمولة عبر المنهج المدرسي ، أي بنوع العلاقات التربوية الموجودة
بين عناصر " المناخ المدرسي " خاصة نظام العلاقة بين المنهج والمعلم والتلميذ .

وهذه العلاقة في المدرسة عبارة عن علاقة "خطية" في اتجاه واحد من المنهج إلى المدرس إلى
التلميذ ، وتتخذ فيها المعرفة التي يتضمنها المنهج صفة "الحقائق النهائية" التي لا تقبل الجدل ،
وعلى المدرس أن يردها ، وعلى التلميذ أن يحفظها لإعادة ترديدها في امتحان نهاية العام لإحراز
النجاح (١٩) .

وتقوم هذه العلاقة بدورها الأيدلوجي في صورة تكبير وتعويق لاتطلاق طاقات الطلاب وتطور
قدراتهم الذهنية ، وتقوم بتشكيل أجيال تألف الخنوع وتتعود على الاستكانة قبيل إلى السلبية
ويعشش الخوف في جوانحها ، أي تعمل - أو تستهدف - خلق شخصية مقهورة عبر غياب أي علاقة
حوارية - نقدية - تشعر طول الوقت بإحساس عميق بالجهل ، وإحساس عميق بالدونية أمام المنهج ،
وأمام المعلم ، وهي صورة مكثفة لطابع العلاقات الطبقية التي تستهدفها الطبقة المهيمنة ، وبالعامل
على تخليق شخصيات مقهورة ، أمام السلطة الطبقية وأجهزة الدولة الرأسمالية ورموزها .

ثمة آلية أيدلوجية أخرى ترتبط بتلك العلاقة الخطية المذكورة ، تتمثل في النمط السائد للعملية
التعليمية تصفه الاتجاهات التربوية المعاصرة بنمط التعليم " البنكي " حيث يستهدف أصحاب السلطة
منه السيطرة على عقول الطلاب ، يجعلها " بنوكاً " تخزن فيها بضائعهم الفكرية من أجل استلابهم
وتزيف وعيهم .

وهذا النمط من التعليم السائد يسميه المفكر التربوي " باولوفرايري " بنمط " تعلمهم المتهورين "
حيث يحول هذا النمط بنظامه ومناهجه وأساليبه وطرق اختباره دون اكتساب المتهورين للوعي
والمعرفة وطرق تحصيلها كبحث مستمر من أجل اكتساب الحرية (٢٠) .

وتتفاعل هذه الآليات الأيدلوجية للنظام التربوي مع نظام القيم السائد في المجتمع الطبقي ، تلك
القيم التي تملك الطبقة المهيمنة أدوات تسييدها فتتشربها العناصر المكونة للمناخ المدرسي مضيئة
طابعاً أيدلوجياً وسياسياً عاماً على كل آليات العملية التعليمية بنظامها ومناهجها المدرسية .

وعلى سبيل المثال ، تشير إحدى الدراسات الميدانية الهامة إلى نوع القيم السائدة بين العناصر
البشرية - طلابها ومعلمين وموجهين وإداريين - المكونة للمناخ التعليمي بالمرحلة الثانوية لمحافظة
السويس - ثانوى عام وصناعى وتجارى - مؤكدة على بعض المؤثرات الهامة في هذا المجال (٢١) .

ومن هذه المؤثرات :

١ - تشير الدراسة إلى أن جميع نسب الموافقة على قيمة " الملكية العامة " بين فئات العينة
المختلفة لم تتعد ٤٩,٣ ٪ ، ويزداد رفض هذه القيمة حتى يصل إلى نسبة ٨٥ ٪ عند معلمى الثانوى

الصناعى ، والنسبة المثوية العامة لعدم الموافقة هي ٦١,٢ ٪ .

٢ - ثلاث فئات فقط من فئات العينة توافق على قيمة " قيادة القطاع العام للتنمية " هم طلاب ثانوى عام بنسبة ٦٦,٤ ٪ ، ويرفض هذه القيمة معلمو التجارى والصناعى ، والإداريون والموجهون بنسب رفض ٦٥ ٪ و ٥٦,٧ ٪ على التوالى .

٣ - من النتائج الملفتة للنظر رفض الإداريين والموجهين لقيمة " التحويل المحلى " بنسبة عالية تصل إلى ٦٦,٧ ٪ ، وكذلك ، وجود نسبة عالية لرفض هذه القيمة من العناصر الأخرى للعينة ، ومعنى ذلك تحييد ومباركة عمليات التحويل الأجنبى .

٤ - كذلك الأمر بالنسبة لتنزكية " الإنتاج المحلى " حيث نجد نسبة عالية من عدم الموافقة أقلها عند طلاب التجارى ، حيث يصل الرفض إلى نسبة ٤٤,٨ ٪ .

٥ - وبالنسبة لقيمة " العمل الجماعى " نجد نسبة عالية من عدم الموافقة أقلها عند طلاب ثانوى عام ومعلمى ثانوى تجارى ، بنسبة رفض ٣٥ ٪ .

٦ - ومن الملفت للنظر أن تلمح رفضا واضحا لقيمة " حرية إبداء الراى " تصل عند طلاب ثانوى عام إلى نسبة ٥٢,٩ ٪ ، وعند طلاب ثانوى صناعى إلى نسبة ٥٨,٤ ٪ وعند معلمى ثانوى صناعى إلى نسبة ٥٠ ٪ .

٧ - كما نلاحظ تدهور قيمة " الطموح " عند عناصر المناخ التعليمى حتى تصل ذروة عدم الموافقة على وجودها عند معلمى ثانوى صناعى بنسبة ٥٥ ٪ ومعارضة عند طلاب ثانوى عام بنسبة ٤٨,٦ ٪ وعند طلاب تجارى بنسبة ٤٤,٨ ٪ ، وعند طلاب صناعى بنسبة ٤٨ ٪ ، وعند معلمى ثانوى عام بنسبة ٤٦,٢ ٪ ، وعند معلمى تجارى بنسبة ٤٥ ٪ .

وهكذا يتفاعل فط النظام التربوى مع نوع المعرفة المتضمنة فى المنهج مع نوع القيم السائدة بين عناصر المناخ التعليمى مفرزة هيمنة أيديولوجية الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا على آليات عمل المؤسسة التعليمية ، ومبينه دورها كأداة أيديولوجية طبقية للدولة ، كأداة لإعادة إنتاج التمايز الطبقي وأداة لتزييف الوعي الاجتماعى .

ثانياً: المؤسسة الدينية :

منذ أن انتهى الصراع بين البرجوازية الصاعدة والمؤسسة الدينية التى كانت مسيطرة على جهاز الدولة إبان الثورة البرجوازية الفرنسية ، لم تكف البرجوازية المهيمنة اقتصادياً وسياسياً عن إعادة تطويع رجال الدين والمؤسسة الدينية لتوجهاتها السياسية والأيدولوجية .

وقد أفرز تطور تلك العلاقة الجدلية بين سلطة الدولة والمؤسسة الدينية إعادة إنشاء "فكر دينى رسمى مساند للطبقة المهيمنة وداخلاكى صميم تكوين أيديولوجية البرجوازية ، يجعلنا نتعرف على

حمل المؤسسة الدينية الرسمية لأيدلوجية الطبقة المهيمنة على سلطة الدولة عبر تبينها وطرحها لذلك الفكر السياسي الدينى الرسمى ، وتتعرف - بالتالى - على المؤسسة الدينية الرسمية كأداة أيدلوجية للدولة .

فى الواقع المصرى - ونسبياً العربى - يمكن التفرقة بين تيارين فى الفكر الدينى الإسلامى المعاصر على مستوى الحركة هما : تيار الإسلام الرسمى وتيار الإسلام الاعمراضى ، وبالتسبة للأول نجد المؤسسة الأصولية الأزهرية ، ومؤسساتها الداخلية - والإسلام مكون بارز فى الهنية الأيدلوجية للنظام السياسى سواء فى مرحلة الستينات أو السبعينات وهو ما يتسق مع الدور التاريخى للأزهر وعلاقته مع النظام السياسى فى مصر ... حيث استخدام المقولات الدينية فى تهرير سياسات النظام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فضلاً عن تمثيل جلور الشرعية وأحد أدواتها الوظيفية والسياسية فى التعبئة والتبرير (نموذج لذلك موقف الإمام الاكبر الشيخ حسن مأمون من حركة الإخوان المسلمين فى تصادمها مع النظام الناصرى) ، والموقف من الصراع العربى - الإسرائيلى فى مراحلها المختلفة^(٢٢) .

وتدخل العلاقة بين المؤسسة الدينية والدولة من باب الاستغلال السياسى للدين بالعمل على ترويج الأيدلوجية البرجوازية عبر الفكر السياسى الدينى الرسمى ، مقدمة إياه باعتباره الدين ، أو على الأقل التفسير السليم والفهم السليم للدين ، معتمدة فى ذلك على الوضع التاريخى للمؤسسة الدينية ومستغلة المشاعر والعقائد الدينية عند المواطنين المختلطة بعناصر الفكر السياسى الدينى الرسمى الشائع عبر الأجهزة المتعددة المكونة بالتالى للثقافة السياسية العامة للمواطنين ، وبصفة خاصة الثقافة السياسية للفلاحين^(٢٣) .

ولا تقف حدود الاستغلال السياسى للدين عند حدود تضمين الخطاب السياسى بجملة كبيرة من المقولات الدينية ، بل تصل إلى السيطرة المباشرة على المؤسسات الدينية القائمة وتحويلها لمؤسسات حكومية عبر تعيين كل من شيخ الأزهر ومفتى الديار وإقامة وزارة (للأوقاف) تخضع لها كل من المعاهد الدينية ، والمساجد ، وقد فكرها السياسى الدينى الرسمى إلى الصحف الدينية والبرامج الدينية - فى كل من الإذاعة والتليفزيون ، وكل ذلك يتم من خلال مقولة سائدة هى : الحفاظ على الدين .

وعلى سبيل المثال ، فقد أنيط بوزارة الأوقاف مهام النهوض بأحوال المساجد بهدف جعلها أداة لتشكيل اتجاهات وسلوك الأفراد بما يتماشى مع أهداف النظام السياسية ، وقد ارتكزت الدولة فى ذلك على حقيقة أن المسجد هو المكان الوحيد الذى يلتقى فيه أعداد كبيرة من الناس بحرية وبدون تصريح رسمى مسبق ، وفى سبيل أهداف السيطرة السياسية تقوم وزارة الأوقاف بتدريب أئمة المساجد ، وأنشأت لذلك إدارة خاصة هى الإدارة العامة للتدريب .

كما تم ربط الائمة بوزارة الأوقاف سواء كموظفين متفرغين أو كأئمة بمكافآت ، ويجرى التحكم السياسى فى التوجيه الرسمى لمخطب أيام الجمع بإشارات رسمية ، وفى سبيل ارتباط الأئمة بالمخط السياسى الحكومى القائمة تجرى عمليات التوقيف الإدارى والفصل والإبعاد عن المساجد عند أية بادرة لاستخدام المساجد فى المعارضة السياسية أو أى تفسير مخالف للتفسير الرسمى للدين .

وفى سبيل الاستقلال السياسى للدين ، تقوم الدولة فى بعض الأوقات بتدعيم بعض التيارات السياسية الدينية بهدف ضرب تيارات سياسية أخرى كما حدث فى الجامعة إبان نهوض الحركة الطلابية الوطنية وترفع شعارات دولة العلم والإيمان ، ولكنها فى أوقات أخرى ترفع بقوة شعار " لا سياسة فى الدين " ذلك الشعار الذى لا تتعرف فيه على معنى فصل الدولة عن الدين ، بل ربط المؤسسة الدينية والفكر السياسى الدينى أكثر بالسياسة العامة للدولة وللحكم القائم ، بهدف احتكار استخدام الدين والفكر الدينى للترويج لأيدولوجية الطبقة المهيمنة اقتصادياً وسياسياً^(٢٤) .

وفى إطار هذا الارتباط بين المؤسسة الدينية الرسمية والدولة ، تقوم المؤسسة الدينية بدورها الأيدولوجى عبر آلياتها الأيدولوجية الخاصة بتقديم تفسير أيدولوجى دينى للأحداث وللظواهر الاجتماعية والسياسية ، ويقوم هذا التفسير على قاعدة أخلاقية وثقافية برجوازية ، حيث يقف مثل هذا التفسير عند سطح الأحداث والظواهر ومنتجاتها النهائية دون الغوص فى أسبابها الاقتصادية والاجتماعية وباستبعاد أى محاولة للتفسير والتحليل الطبقي ، أى باستبعاد الأوضاع الطبقيّة وعلاقات الاستقلال الطبقي باعتبارها جلد الظواهر الاجتماعية والأزمات الاقتصادية والسياسية .. الخ.

وينعكس هذا التفسير الدينى - أيضاً - على تحليل العلاقات الدولية وخاصة الصراع بين حركة التحرر الوطنى وقوى الاستعمار ، ذلك الصراع الذى يصبح أيضاً مجرد صراع دينى بين الإسلام وأعداء الإسلام ... الخ ، كما تصبح الظواهر الاجتماعية نتاجاً لوجود الخير والشر ، والأزمات الاقتصادية من فعل بعض الأشرار المعادين للقيم الخيرة والمعادين للأخلاق الحميدة والمعادين للدين .

ويرتبط مثل هذا التفسير بالأيدولوجية البرجوازية التى تعمل على إبعاد الطبقات الاجتماعية الشعبية عن رؤية أسباب أوضاعها فى الاستغلال الطبقي الاقتصادى والسياسى والأيدولوجى .

ولكن خطورة دور المؤسسة الدينية يتأتى من ربط تفسيرها السياسى والأيدولوجى البرجوازى بالدين ، باستغلالها للمشاعر الدينية للمواطنين من أجل تمرير أيدولوجية سياسية طبقية مساندة للطبقة المهيمنة ، باعتمادها على النص الدينى فى لغة خطابها السياسى ، واعتمادها على الموروث الدينى بهدف إعطاء " قدسية " محددة لأحداث بشرية وأفعال بشرية وتوجهات سياسية معينة..

كما يمكننا التعرف على هذا الدور فى الصراعات التى تنشأ بين التيارات الدينية نفسها ، وبين بعض المفكرين فى إطار الفكر السياسى الدينى ، واختلاف التفسيرات للنصوص^(٢٥) .

تصل درجة وضوح هذا الدور السياسى الأيدولوجى للمؤسسة الدينية فى مساندة التوجهات

السياسية للدولة ، فتصل إلى ذروتها فى إعطاء تفسير سياسى ودينى لاتفاقيات الصلح مع العدو الصهيونى بمقارنتها مع " صلح الحديبية " وتدعيمها بجملة واسعة من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وقيام دار الافتاء بدور بارز فى هذا المجال^(٢٦) .

كما يظهر ذلك الدور السياسى فى اشتراك الطبقة المهيمنة للمسجد فى الصراعات السياسية ، ويبدو ذلك جلياً أثناء المعارك الانتخابية بتوجيه أئمة المساجد لمساندة الحكام والهجوم على المعارضين هجوماً سياسياً يلبس ثوب الدين بما لذلك الدور السياسى - الدينى من آثار أيديولوجية بارزة على وعى المواطنين .

ثالثاً، المؤسسة الإعلامية ،

تظهر المؤسسة الإعلامية كأداة أيديولوجية للطبقة المهيمنة اقتصادياً وسياسياً بصورة أكثر وضوحاً من المؤسسة التربوية ، عبر سيطرة الطبقة الحائزة للثروة على أجهزتها الضخمة فى الصحافة ومحطات الإذاعة والتلفزيون ، كما تتبع أهميتها وخطورتها من قدرتها على اختراق الحواجز ، وتمكنها من توصيل رسالتها الأيديولوجية إلى المواطنين فى منازلهم فى إطار من " الترفيه والتسلية " عبر نماذج عديدة كالبهرامج والتمثيليات الدرامية والإعلانات ... الخ كما تتمكن - خاصة عبر الإذاعة والتلفزيون - من تقديم رسالتها إلى كافة الطبقات الاجتماعية وإلى كافة الفئات العمرية ، من الطفل الذى لم يلتحق بالمدرسة إلى الشيخ المعجوز ، فتتدخل هذه الأجهزة فى عمليات التنشئة الاجتماعية للطفل ، متفوقة ومتخطية غالباً لدور الأسرة فى هذه العملية ، ومقدمة عبر برامجها قيماً معينة منتقاة أيديولوجياً لا تتفق بالضرورة مع قيم البيئة الاجتماعية والطبقية التى تنتمى إليها الأسرة^(٢٧) . وتظهر خطورة الرسالة الأيديولوجية لوسائل الإعلام من خلال إمكاناتها البارزة فى التأثير فى كل جوانب السلوك الانسانى من خلال دورها فى تكوين الصورة الذهنية عند الأفراد عن الدول والمواقف والاحداث ، فتؤثر بالتالى فى الطريقة التى يدرك بها الناس الأمور ، والطريقة التى يفكرون بها ... الخ باعتبارها قد أصبحت أهم مصدر للأخبار والمعلومات والمعارف عن العالم المحيط بنا فى العصر الحديث .^(٢٨)

وتقوم الطبقة المهيمنة اقتصادياً وسياسياً بتحميل أفكارها وآرائها لمضمون الرسالة الإعلامية عبر عملية تصنيف واختبار لنوع القيم والأفكار والآراء والأخبار مستهدفة التحكم فى عمليات التنشئة الاجتماعية والسياسية وتشكيل " الرأى العام " .

وإذا كانت وسائل الإعلام بفضل انتشارها الواسع تلعب دوراً أساسياً فى خلق وتكوين ما يسمى "بيئة الرأى" وإذا كان الناس غالباً يتعاشرون العزلة الاجتماعية فإن المواطنين يميلون إلى أن يعبروا عن الآراء التى تؤيد ما يدركون أنها آراء سائدة أو شائعة بين الجماعة ويقومون الآراء التى يرون أنها "غير شائعة" والمؤسسة الإعلامية تلعب دوراً هاماً فى هذا المجال بتحكمها فى تسييد بعض الآراء ونشرها

بشكل واسع مكونه خصائص " الرأى العام " الملن للجماهير^(٢٩) .

أى أن وسائل الإعلام تقوم فى هذا المجال بدور " قمعى " يتمثل فى تسييد آراء وأفكار أصحاب السلطة الاقتصادية والسياسية ومكونة إطار الرأى العام ، وإطار للنظر إلى الأمور ، إطاراً للسلوك ، يحدد للمواطن ما ينبغى له أن يفصح عنه من آراء ، ومصوراً له أن آراءه الأخرى الكامنة غير المعلنة ليست سوى آراء شخصية ، فردية ، غير ناضجة ، أو مجرد آراء لأقلية خارجة عن إطار الرأى العام للمجتمع وتوجهاته المقررة والمستقرة وعليه بالتالى أن يقمعها داخله أو يتخلى عنها ويتبنى بدلاً منها تلك الآراء السائدة أو الشائعة .

ونتيجة ذلك يظهر وعى زائف فى المجتمع يؤثر على حقيقة الرأى العام ، فإذا قمنا بقياس الرأى العام فى مجتمع تقوم الطبقة المسيطرة فيه " بفسيل المخ " لأعضاء المجتمع بصورة منظمة ومنتظمة ، بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، فإننا فى الواقع لا نقيس الرأى العام ، والذي يفترض لتكونه " حرية " تداول المعلومات والحقائق ، والحق فى الاجتماع والنقاش والتعبير الحر عن الرأى الخ ، بل نقيس الوعى الزائف الذى كونه المؤسسة الإعلامية.^(٣٠)

وليس غريباً - فى هذا الإطار - أن يصل باحثون غربيون يعيشون فى نفس هذه المجتمعات إلى حقيقة وجود رأى عام زائف ووعى اجتماعى زائف فى هذه المجتمعات الرأسمالية المتقدمة بأنظمتها " الديمقراطية " طالما تظل الحقيقة الجوهريّة تقول بطبقية الدولة القائمة وياحتكارها للمؤسسة الإعلامية بأجهزتها الضخمة ، ولذلك نجد عالماً اجتماعياً بارزاً مثل "بورديه" يذهب فى دراسة هامة له نشرها عام ١٩٧٣ إلى أنه لا يوجد رأى عام بالمعنى الحقيقى فى " فرنسا " كما ينظر " بورديه " إلى عمليات قياس الرأى نفسها باعتبارها ذات وظيفة سياسية ، ووظيفتها الرئيسية هى وظيفة أيديولوجية لإشاعة الوهم حول وجود رأى عام ، فحين تنشر الجرائد الفرنسية مثلاً أن ٦٠٪ من الفرنسيين يرون كذا وكذا ، فهذا على وجه الدقة نوع من التضليل . والوظيفة السياسية ، التى تتمثل فى حاجة السلطة إلى إضفاء الشرعية على النظام السياسى ، وبدلاً من أن يقول السياسى - كما كان يحدث قديماً إن "الله فى جانبنا" فإنه يقول الآن " الرأى العام فى صفنا " وفى مقابل ذلك يرى " بورديه " أن الطبقات الشعبية فى ظل هذه الأوضاع والآليات واقعة فى إطار من الأساطير التى تروج لها الأيدلوجيا المسيطرة^(٣١) .

وبينما ينعكس شكل حكم البرجوازية فى البلدان الرأسمالية المتقدمة عبر نظام الديمقراطية البرجوازية على شكل ملكية وسائل الإعلام وعلى إتقان أساليب وآليات رسالتها الأيدلوجية فى نفس الوقت ، تتجج بكفاءة " فى تزيف الرأى العام وتزييف الوعى الاجتماعى .

ينعكس أيضاً - شكل حكم البرجوازية فى البلدان الرأسمالية المتخلفة عبر نظم الحكم الفردية والاستبدادية على شكل ملكية وسائل الإعلام ، منتجاً تخلف المؤسسة الإعلامية وتخلف أساليب

وآليات ومضمون رسالتها الأيدلوجية .

حيث تصبح المؤسسة الإعلامية فى هذا الوضع هى أداة الاتصال الوحيدة - تقريباً بين الحكام والمحكومين تسيطر عليها النخبة الحاكمة وتراقب عملية تدفق المعلومات والآراء ، وتحول دون تسرب معلومات وآراء لا تتفق والحط السياسى بكافة الأساليب ، وتحول وسائل الإعلام إلى مجرد أدوات للدعاية للنظام القائم وللحكومة القائمة .

وفى ظل هذه الأوضاع نستطيع التعرف على تخلف مضمون الرسالة الإعلامية كانعكاس لتخلف النظام السياسى وديماجوجية السلطات الحاكمة حيث يصبح الاعتماد على أساليب الإثارة والتعبئة الديماجوجية ، ومخاطبة العواطف دون مخاطبة العقل ... الخ ، أحد أساليب النخبة الحاكمة للحفاظ على موقعها إزاء الجماهير .

ولكنها تستخدم وسائل الإعلام أحياناً كمثير وأحياناً كمهدئ ، وفى سبيل الهدف الثانى تقوم وسائل الإعلام بتقديم مضامين تافهة رخيصة للتسلية وإبعاد الاهتمام بعيداً عن القضايا القومية ، بعيداً عن المشاكل والأزمات الفعلية ، وفى ذلك نستطيع التعرف على طبيعة المهالفة فى الاهتمام بمباريات كرة القدم واعتبار عمليات الفوز " انتصارات قومية " تؤلف من أجلها الأغاني والانشيد ، كما نستطيع التعرف على حشو الرسالة الإعلامية بالمسلسلات والأفلام المحلية والأجنبية ، ونعرف فيها على الدور السياسى الأيدلوجى للترفيه والتسلية .

ومن المتوقع فى ظل هذا الوضع ، ألا تسمح النخبة السياسية الحاكمة بأى معارضة ، ولا بأى رأى مخالف بالارتفاع ، ومعنى هذا محدودية " النقد " الذى تسمح به داخل وسائل الإعلام وحصره - إن وجد - فى حدود ضيقة وجزئية وهامشية وغير فعالة وإبعاده عن مواطن البحث عن جوهر الأزمات القائمة ، ليقوم النقد نفسه بدوره الأيدلوجى السياسى لحرف تفكير المواطنين وتفريغ سخطهم وتوجيهه لتصله تجاه بعض الأفراد الأشرار أو تجاه بعض الظواهر الجزئية والهامشية^(٣٢) .

وكما تخفى الرسالة الأيدلوجية التى تبثها وسائل الإعلام خلف عمليات الترفيه والتسلية بهدف التهذئة ، تظهر الديماجوجيا فى هذه الرسالة فى أشكال من الإثارة والشعارات المتناقضة .

وفى إطار أسلوبى الإثارة والتهذئة المذكورين تقوم المؤسسة الإعلامية بدورها عبر تجزىء الحقائق وتقديم المعلومات الكاذبة والتركيز على بعض الأحداث دون غيرها ، وتضخيم بعض الأحداث والتهوين من البعض الآخر ، بل وتنتهج تجاه بعض الأحداث الداخلية أو الخارجية أسلوب " الصمت " والتعجأه فى إطار عملية واعية لتصنيف الأحداث وترتيبها وإعادة تركيبها بما يخدم الرسالة الأيدلوجية للطبقة الحاكمة ، بما يخدم هدف تجهيل المواطنين وتزييف وعيهم وخلق رأى عام زائف ، ولكن مساند للسلطة القائمة وللنظام القائم ، حتى ولو كان هذا الرأى العام صامتا .

وفى سياق هذا الطرح المنهجى لآليات عمل المؤسسة الإعلامية لتزييف وعى المواطنين وصناعة

اغتراب أفراد الطبقات الشعبية ، ربما يكون من المناسب التناول التفصيلي لبعض الأدوات الثقافية والإعلامية كأدوات نشر وتوزيع الفكر والثقافة بشكل واسع ، وبصفة خاصة السينما والمسرح والتليفزيون والكتاب بهدف رصد التحولات الأساسية التي حدثت لكل منها في السبعينات والثمانينات وكذلك دورها باعتبارها ذى دلالة فى نفس الوقت على تشكيل وعى ومزاج الجماهير .

١ - السينما

فى الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٩٥ ، شهد المقهى الكبير الكائن بشارع كابوسين "بالعاصمة الفرنسية" باريس أول عرض سينمائى تجارى فى العالم .

ومنذ تلك اللحظة ، تملك الطبقة الرأسمالية فى أوروبا - ومنها إلى بقية دول العالم - أداة فاعلة ومؤثرة لنشر أفكارها وترسيخ قيمها الاجتماعية ونسقتها الفكرى والأيدلوجى على بقية الطبقات الاجتماعية وبهذا دخل الصراع الأيدلوجى بين الرأسمالية والاشتراكية منحى جديد للإنتاج السينمائى ليس سوى تعبير أيدلوجى عن الفئات والطبقات السائدة فى المجتمع والمنتجة لهذا الفن الجديد .^(٣٢)

ولم تكد تمر أسابيع قليلة على هذا العرض السينمائى بعاصمة المال والجمال "باريس" إلا وكان الثغر البحرى الهادئ "الاسكندرية" يشهد عرضاً مشابهاً على هيئة صور متحركة بمقهى "زوانى" ومنها انتقل إلى القاهرة وبقية عواصم المحافظات وانتشرت دور العرض انتشاراً هائلاً^(٣٤) بيد أن التاريخ الحقيقى للسينما المصرية - المدعومة بنشاط الجاليات الأجنبية فى البلاد - يبدأ عام ١٩٣٧ وهو تاريخ أول عرض سينمائى ناطق لفيلم "أولاد اللوات"^(٣٥) وعلى مدى ثمانية وخمسين عاماً قدمت السينما المصرية ما يزيد على ألفى فيلم تم خلالها ترسيخ قيم الطبقة الرأسمالية المصرية وعبر عمليات الاقتباس الواسعة لمضامين السينما الأمريكية أعيد حشو أدمغة الجمهور المصرى بنسق فكرى محدد وتم بالنهاية تهميش مشاعر هذه الجماهير وحصرها داخل دائرة الفهم البرجوازى وبرغم أن السينما - كأداة - هى مركباً جمالياً واجتماعياً فإنها أيضاً - وهذا هو الأهم - منتجاً اقتصادياً ومشروعاً استثمارياً ناهيك عن أهميته الأيدلوجية لذا وفى غمرة الحماس البورجوازى الصاعد (بعد ثورة ١٩١٩ الكبرى) للسيطرة على السوق المحلى قررت مجموعة طلعت حرب ويوسف قطاوى (بنك مصر) تأسيس شركة للتمثيل والسينما وتجهيز استديو مصرى كامل يدفع هذه الصناعة - وهذه الأداة الأيدلوجية أيضاً - خطوات كبيرة للأمام وهو ما تحقق فعلاً عام ١٩٣٥ .

وبالقطع لم يكن ظهور هذا الفن الجديد سوى مقدمة لتكريس معطى اجتماعى وطبقى جديد يوظف فى مقدمة دولاب الإنتاج السينمائى بصرف النظر عن هشاشة المضمون الفكرى المطروح (ممثلين - كومباس - منتجون - مخرجون - موظفون وفنيون - مكاتب توريد كومباس ... الخ ... الخ) وقد ظلت السينما المصرية منذ بداية نشاطها وحتى الآن باستثناءات قليلة تندرج تحت ما يسميه "فرناند

وسولانس " واكتافير جيتير " السينما الهوليودية أو سينما "الترفيه والتسلية" . ومعنى أكثر دقة سينما الوعي الزائف أو على حد تعبير الناقد السينمائي الكندي " أندريه باكيه " أنها سينما فائض القيمة .^(٣٦)

أما تلك الأعمال الواقعية والمجادة - المحدودة - التي عرضتها السينما المصرية فلم تتجاوز العشرين فيلماً على مدى أكثر من خمسين عاماً يمكن إدراجها تحت ما نسميه " الأعمال ذات الدلالات الفكرية " التي تعكس مشاكل وتناقضات البورجوازية الصغيرة برغم أنها تتم من داخل دائرة السينما التجارية * وبرغم التدخل التدريجي من جانب الحكومة الناصرية في مجال السينما منذ عام ١٩٥٥ والذي اتسع بعد عام ١٩٦٢ وإنشاء المؤسسة المصرية العامة للسينما " فقد ظلت السينما المصرية تتسم بطابعها التجاري وطرحها لكل مخلفات القيم البورجوازية والأمريكية ويكفى أن نشير إلى أنه برغم الضجيج العالي الصوت حول الاستقلال عن المعسكر الاستعماري الغربي منذ عام ١٩٦١ والتوجه نحو بناء الاشتراكية فقد ظلت السينما الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً تشكل أكثر من ٨٠ ٪ من عروض السينما المصرية^(٣٧) .

جدول رقم (٥٣)

الانحلال الموزعة في مصر خلال الفترة ١٩٥٤ - ١٩٦٨

| السنوات | متوسط الأفلام المصرية الموزعة سنوياً | متوسط الأفلام الأجنبية المستوردة سنوياً | نسبة الأفلام المصرية إلى الأجنبية ٪ |
|-----------|--------------------------------------|---|-------------------------------------|
| ١٩٥٨ - ٥٤ | ٥٠ | ٣٠٦ | ٪ ١٦.٣ |
| ١٩٦٣ - ٥٩ | ٥٣ | ٢٩٤ | ٪ ١٧.٦ |
| ١٩٦٨ - ٦٤ | ٣٨ | ٢٨٦ | ٪ ١٣.٣ |

المصدر : عبد المعطي شرف الشريشي " تسويق الفيلم المصري " دراسة تحليلية لمشكلات توزيعه " رسالة ماجستير في إدارة الاعمال كلية التجارة " - جامعة عين شمس ١٩٦٩ ص ٥٢

ويبدو واضحاً إلى أي مدى ظلت الغلبة والحضور الأيدلوجي المؤثر للسينما الغربية يساهم بدوره في

* من أمثلة ذلك فيلم " العزيمة " لكمال سليم " والسوق السوداء " لكامل التلمساني ، " الفترة " لصلاح إبراهيم ، " والمتمردون " لتوفيق صالح و " المحرام " لهنري بركات ، " باب الحديد " والأرض " ليويسف شاهين ، " البوسطجي " لحسين كمال ، جفت الأمطار لسيد عيسى أما السبعينات فأبرز هؤلاء علي عبد الحائق " على من نطلق الرصاص " - " أغنية علي المر " وغالب شمت " ظلال على الجانب الآخر " أشرف فهمي " ليل ولقضان " سعيد مرزوق " أريد حلاً " مع ملاحظة أن عدداً كبيراً من هؤلاء قد انتمجروا فيما بعد في دولاب الإنتاج البورجوازي الرديء للسينما المصرية في عقد السبعينات خاصة بعد دخول المال النفطى إلى هذه الحلبة بعد عام ١٩٧٤ م .

تعميق مفهوم "السوبرمان" والحلم الأمريكي للشراء " وقد تبين أن نسبة الأفلام الأمريكية إلى إجمالي الأفلام الأجنبية المستوردة في مصر طوال العشرين عاماً الماضية (١٩٦٠ - ١٩٨٠) تتراوح بين ٧٧,٨ إلى ٥٣,٨٪ وهو ما يظهر البيان التالي :

جدول رقم (٥٤)

عدد الافلام المستوردة الاجنبية والامريكية ونسبة كل منهما
خلال الفترة ١٩٦٠ - ١٩٨٠ م

| السنوات | عدد الأفلام الأجنبية المستوردة سنوياً (١) | عدد الأفلام الأمريكية المستوردة سنوياً (٢) | نسبة ١:٢ |
|---------|---|--|----------|
| ١٩٦٠ | ٣١٦ | ٢٤٦ | ٧٧,٩ |
| ١٩٦١ | ٣٢٠ | ٢٣٢ | ٧٢,٥ |
| ١٩٦٢ | ٣٠١ | ٢٢٥ | ٧٤,٨ |
| ١٩٦٣ | ٢٦٤ | ١٨٢ | ٦٨,٩ |
| ١٩٦٤ | ٣٢٥ | ٢٠٧ | ٦٣,٧ |
| ١٩٦٥ | ٣٧٣ | ٢٦٦ | ٧١,٣ |
| ١٩٦٦ | ٢٤٠ | ٢٠٠ | ٨٣,٣ |
| ١٩٦٧ | ٢٧٥ | ١١٨ | ٥٣,٨ |
| ١٩٦٨ | ٢٦٩ | ١٦٤ | ٦١,٠ |
| ١٩٧٣ | ٢٠٨ | ٧٢ | ٣٤,٦ |
| ١٩٧٤ | ٤٣٣ | ٨٦ | ١٩,٩ |
| ١٩٧٥ | ٢١٤ | ٩٢ | ٤٣,٠ |
| ١٩٧٦ | ٢٣٠ | ٩٢ | ٤٠,٠ |
| ١٩٧٧ | ٤٢٥ | ٢٤٢ | ٥٦,٩ |
| ١٩٧٨ | ٣٤٥ | ١٧٠ | ٤٩,٣ |
| ١٩٧٩ | ٣٠٨ | ١٥٩ | ٥١,٦ |
| ١٩٨٠ | ٢٢٩ | ١٥٧ | ٦٨,٦ |
| المجموع | ٥٠٧٥ | ٢٩٤٠ | ٪ ٥٧,٩ |

المصدر : حتى عام ١٩٦٨ مصدره عبد المعطي شرف الشرييني ، مرجع سابق .
أما عام ١٩٧٣ فصاعداً لمصدره اتحاد الصناعات المصرية ، الكتاب السنوي لعام ١٩٨١ ص ٥٦٩ .

وقد لعب القطاع الرأسمالي الفردي في مجال السينما دورا أساسيا في تعميق الأزمة بل والسطور على الإمكانيات المتاحة لقطاع السينما الحكومية فتمكن هذا القطاع الخاص من تمويل أكثر من ٩٠٪ من الأفلام المنتجة خلال الفترة (٦٢ - ١٩٧١) بأموال الحكومة المصرية وقدم أسوأ العروض السينمائية حتى من وجهة النظر البورجوازية (٢٨) وبذلك ساهم مساهمة أكيدة في سيادة الفيلم الأمريكي على عقلية الجمهور أصلا فباتت النجومية هي أحد أهم محددات المشاهدة السينمائية في البلاد .

ففي استفتاء قامت به إحدى شركات الإنتاج السينمائي في مصر عام ١٩٦٣ بالتعاون مع إحدى المجالات الفنية المتخصصة تبين أن ٥٩٪ من المشاركين في الاستفتاء قد ذكروا أن أهم دافع لمشاهدة الفيلم هو النجوم (٢٩) .

والجدير بالذكر أن نظام النجوم Stars قد ظهر في السينما الأمريكية منذ عام ١٩٠٩ على اثر تشكيل التنظيم الاحتكاري السينمائي الشهير The Motion Picture Patents co. لقد نجحت السينما التجارية الهابطة بحق في تكتيل ودمج الطبقات المستغلة في الوطن العربي بأسره في شبكة إنتاجها (٤٠) فهذا الواقع المتردي لم يكن يوما قاصرا على المجتمع المصري وإنما هو سمه من سمات البورجوازية العربية ولعل البيان التالي يلقي مزيدا من الضوء على هذه الحقيقة .

جدول رقم (٥٥)

الأفلام المستوردة إلى الدول العربية خلال الفترة ١٩٦٠ - ١٩٦٦

| القطر | أمريكية | | فرنسية وإيطالية | | أفلام مصرية | | أفلام أخرى | | المجموع | |
|---------|---------|------|-----------------|------|-------------|------|------------|------|---------|-----|
| | عدد | % | عدد | % | عدد | % | عدد | % | عدد | % |
| سوريا | ٢٨٥ | ٦٦,٩ | ٥٩ | ١٣,٨ | ٥٥ | ١٢,٩ | ٢٧ | ٦,٤ | ٤٢٦ | ١٠٠ |
| لبنان | ٢٧٣ | ٥٤ | ١٣٢ | ٢٦ | ٧٨ | ١٦ | ٢٠ | ٤ | ٥٠٣ | ١٠٠ |
| الجزائر | ١٦٠ | ٤٠ | ٢٠١ | ٥١ | - | - | ٣٦ | ٩ | ٣٩٧ | ١٠٠ |
| المغرب | ١٥٢ | ٣٤ | ١٦٢ | ٣٦ | ١٥ | ٤ | ١١٤ | ٢٦ | ٤٤٣ | ١٠٠ |
| تونس | ١٦٠ | ٤١,٦ | ٢٤ | ٣٢,٤ | ٣٢ | ٨,٣ | ٦٨ | ١٧,٧ | ٣٨٤ | ١٠٠ |

المصدر : عبد المظى ، مرجع سابق ص ٨٤ .

وإذا حاولنا من جهة أخرى تحليل مضمون ما تطرحه السينما المصرية أو السينما الأجنبية أو ما يسمى " الرسالة الإعلامية " نجد التهميش المتعمد لحركة الطبقات الشعبية سواء في الأحداث الوطنية

العظمى (ثورة ١٩١٩) أو الكفاح الوطنى والسرى فيما بعد ذلك وبالمقابل تركيز الأضواء على الدور الإيجابى الذى تقوم به الطبقات الرأسمالية ومدى إنسانيتها ١٤

كما دفعت موجه انتشار الأفلام الجنسية وأفلام العنف والكارايمه الأمريكية بصفة خاصة - بعض الأجهزة الثقافية الرسمية إلى التحذير من خطورة هذه الأنواع من الأفلام على سلوك الشباب^(٤١) . إن الطابع الصنى ينتقل إلى الإنسان وإلى فنه ليحولهما معا إلى أشياء تدخل دائرة التبادل على حد تعبير " أرنت فيشر " وعلى إيه حال لقد أدى ظهور التلفزيون على ساحة الإعلام إلى التأثير بشكل لم يكن مسبقا ليس فحسب على جمهور السينما والمسرح فى مصر وإنما وهذا هو الأخطر على مجمل أوجه الحياة والتشريع فى عملية تزييف الوعى الاجتماعى وتدجينه لصالح أشد الأفكار تخلفاً ورجعية.

٢ - الإذاعة والتلفزيون :

علينا هنا أن نجسد ذلك الطرح النظرى فى أخطر الادوات الإعلامية وأكثرها تأثيرا وقاعدية ، بالقطع فإننا نتجاوز النظرة التى تتسم بها عادة أبحاث الاتصال الجماهيرى التى تركز أكثر فأكثر على تأثير البرامج الدعائية على مشتريات السلع أو قبول وجهة نظر ما ، وذلك من خلال تركيزنا على الأثر التدريجى أى الأثر القيمى المتراكم .

فكما كانت السيطرة على السوق القومى واحدة من أغلى أهداف الطبقة البورجوازية الصاعدة فى أوروبا منذ مطلع القرن السابع والثامن عشر ، فإنه بعد أن تحققت لها هذه السيطرة بالثورات الثلاث الكبرى الإنجليزية (١٦٤٨) والأمريكية (١٧٧٧) ثم من بعدها الثورة الفرنسية (١٧٨٩) باتت السيطرة على عقول وقيم الطبقات الأخرى وخاصة طبقه العمال التى ما فتأت بين الحين والآخر تعلن تمردها الاقتصادى عبر الإضرابات عن العمل - والسياسى عبر حرب الشوارع والاستيلاء بين الفينة والأخرى على السلطة كما حدث فى كوميونه باريس عام ١٨٧٠ .

وهكذا استخدمت كل التطورات اللاحقة فى قوى الإنتاج المادى والمكتشفات العلمية الحديثه فى مجال الاتصالات لتدجين هذه الطبقات المتمردة وتحويلها إلى أداة سهلة القيادة للطبقة البورجوازية الحاكمة وبالقطع لم يكن ذلك ليقصر على التركيب الاجتماعى فى بلد المنشأ (أوروبا) وإنما انتقل ليلعب دوراً أشد ضراوة فى البلدان الرأسمالية المتخلفة .

فالثورات الإعلامية الثلاث (المطبعة - السينما - الإرسال الإذاعى والتلفزيون)^(٤٢) . قد دفعت بالسيطرة الأيدلوجية والقيمية البورجوازية على بقية الطبقات خطوات بعيدة للأمام وإن كانت بالمقابل قد أدت لتشره شديد القسوة فى مفاهيم الطبقات الفقيرة حول مضامين أزمته ودرجة وعيها بأسباب هذه الأزمات .

يكفى أن نشير على سبيل المثال وليس الحصر أن الشخص العادى فى عالمنا المعاصر يتعرض يومياً لأكثر من ١٥٠٠ رسالة إعلامية تؤثر بدرجة مدهشة على سلوكه وتوجهاته السياسية والثقافية^(٤٤) .

ومما لا شك فيه أن آلة الإعلام الامبريالية (والأمريكية تحديداً) تمثل الأساس المرجعى لكل النغمات التى تعزفها أدوات الإعلام فى الدول الرأسمالية المتخلفة وفى مقدمتها مصر .

ولعل هذا الواقع قد دفع منظمة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلم " اليونسكو " والعلوم عام ١٩٧٧ لتشكيل اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال " التى طالبت فى تقريرها الختامى بالتداول المتوازن للإعلام وبضرورة البحث عن " نظام دولى جديد للإعلام " وشجب الإعلام ذى الاتجاه الواحد^(٤٥) .

* * *

تبدأ قصة الإرسال الإذاعى فى مصر فى الحادى والثلاثين من مايو عام ١٩٣٤ أى متأخرة بنحو ستين عاماً عن مثيلتها فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

وفى البداية منحت الحكومة المصرية عقد احتكار الإرسال الإذاعى إلى شركة "ماركونى" بيد أن الإدراك المتنامى من جانب الحكومة والطبقة الرأسمالية المصرية لمخطورة هذه الأداة الإعلامية وضرورة توظيفها المباشر من جانبها لتدجين مشاعر وقيم الطبقات المتמרدة فى ذلك الحين (خاصة العمال والطلبة) قد أدى إلى إنهاء الحكومة لعقد احتكار "ماركونى" وتسلمتها الحكومة المصرية رسمياً فى الرابع من مارس عام ١٩٤٧ .

ومنذ ذلك الحين ازداد عدد ساعات الإرسال الإذاعى من الشبكة الرئيسية (البرنامج العام) ليصل عام ١٩٥٢ إلى نحو إحدى عشر ساعة متواصلة هذا بخلاف أربعة ساعات للبرنامج الأوروبى المحلى .

ومع المحاولات الناصرية اللاحقة لتوسيع هامش وجودها الإعلامى والسياسى فى الداخل والخارج وتوسيع نطاق تبادل السلع الثقافية وذلك عبر تعميم كهرة الريف إلى أوسع نطاق ممكن ، أمكن تحقيق الضم الثقافى القسرى للريف إلى قيم المدينة من خلال الإرسال الإذاعى والتليفزيونى فيما بعد .

على أية حال ارتفع متوسط عدد ساعات الإرسال الإذاعى بأكثر من الخمسة عشر ضعفاً خلال الثلاثين عاماً الماضية ، حيث بلغ أكثر من ١٦٣ ساعة يومياً عام ١٩٨٣ / ١٩٨٤^(٤٦) .

ثم إلى ما يزيد عن ١٩٣ ساعة يومياً فى عام ١٩٨٩ / ٨٨^(٤٧) ولا يكفى هذا الحجم المدهل فى ساعات الإرسال الإذاعى لتبئين مقدار غسيل المخ أو تريفى الوعى للقراء فى مصر من جانب الحكومة المصرية التى تمثل الطبقة الرأسمالية المسيطرة وإنما لنقترب أكثر إلى التوزيع النوعى لهذا الإرسال ثم إلى مضمون الرسالة الإعلامية المتضمنة فى هذا الإرسال .

جدول رقم (٥٦)

التوزيع النوعى للإرسال الإذاعي في مصر لعامى

١٩٨٤/٨٣ و ١٩٨٩/٨٨

| المتوسط اليومي للبث ١٩٨٩/٨٨ | | | المتوسط اليومي للبث ١٩٨٤/٨٣ | | | لون البرامج |
|-----------------------------|------|-------|-----------------------------|------|-------|----------------------|
| % | ساعة | دقيقة | % | ساعة | دقيقة | |
| ٤١,١ % | ٧٩ | ٤٣ | ٤٣,٥ % | ٧١ | ٢٨ | - ترفيهى |
| ١٩,٩ % | ٣٧ | ٥٥ | ١٨,٨ % | ٣٠ | ٢٢ | - الدينى |
| ١٩,٨ % | ٣٧ | ٣٨ | ١٦,٥ % | ٢٦ | ٥٦ | - الثقافى |
| ١٠,٥ % | ١٨ | ٢٦ | ٧,١ % | ١٢ | ٥ | - الطوائف والخدمات |
| ٨,٤ % | ١٦ | ١٥ | ٨,٨ % | ١٤ | ٣٦ | - الاعلامية |
| ١,٣ % | ٢ | ٣١ | ١,٤ % | ٢ | ٢١ | - التعليمية |
| ١,٢ % | ١ | ١٩ | ٠,٢ % | - | ١٩ | - الاعلانات التجارية |

المصدر : اتحاد الإذاعة والتليفزيون الكتاب السنوى لعامى ١٩٨٤/٨٣ (ص ٦٩) و ١٩٨٩/٨٨ ص ٨٨. مرجع

سابق ص ٦٩

علينا هنا أن نهدى مجموعة من الملاحظات :

أولاً : أن الحيز الترفيهى يشكل أكثر من ٤٣,٥ % عام ١٩٨٤/٨٣ ، ٤١ % عام ١٩٨٩/٨٨ مما يؤكد أن وسائل الإعلام تهتم أساساً بعنصر الترفيه وتتجاهل إلى حد كبير عرض القضايا التى تهم الرأى العام وحركة قوى المعارضة^(٤٨).

ثانياً : أن المحتوى الثقافى - بصرف النظر عن عدم معرفة المعايير التى تتم وفقاً لها عملية التصنيف هذه - يحمل محتوى ينتمى إلى قيم الطبقة المهيمنة على الدولة وعلى أدواتها الفكرية والإعلامية .

ثالثاً : يشمل البث السياسى نشرات الأخبار وموجز الأنباء والتعليقات السياسية وهى كلها تعكس وجهة نظر الحكومة المصرية وبالتالي الطبقة المسيطرة وهو يؤدي إلى اتساع ظاهرة الذين لا رأى لهم فى مثل هذه المجتمعات^(٤٩).

ومما لا شك فيه أن الإرسال الإذاعى قد ظل يمثل أحد أهم الأدوات الإعلامية والإخبارية إن لم يكن أهمها على الإطلاق لسكان المدن والقرى والمحافظات المختلفة بالبلاد لمدة تقارب الثلاثين عاما وقبل

بداية الإرسال التليفزيونى فى يولية عام ١٩٦٠ .

أى أن الإرسال الإذاعى قد ظل يمثل السيطرة الطبقية المحلية المباشرة للبورجوازية المصرىة حيث لم تكن للسينما حتى ذلك التاريخ تأثيراً على سكان القرى والمحافظة البعيدة نظراً لتركز دور العرض بالمحافظات الأربعة الرئيسية (القاهرة - الإسكندرية - السويس - الاسماعيلية) .

والحقيقة أن التزييف الواسع والمزدوج (المصرى الرأسمالى - الأمريكى الاستعمارى) لوعى الطبقات المضطهدة فى المجتمع المصرى قد جاء فى أعقاب ذلك المارد الجديد المسمى "التليفزيون" .

لم يكن قد مضى نحو نصف قرن على اختراع أداة العرض السينمائى فى أوروبا والولايات المتحدة حتى شرعت جهود بعض العلماء الأوربيين العاملين فى شركات الإنتاج السينمائى فى تطوير أدواتهم باتجاه خلق وسيلة أكثر فاعلية وتأثير تكون قادرة على تجاوز معطيات المشاهدة السينمائية إلى اقتحام غرف معيشة بل وغرف نوم مواطنيهم لتضمن سيادة نسق القيم البورجوازية على الجميع دون عائق وهكذا بدأت هذه الجهود فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا منذ عام ١٩٣٠ وكللت هذه الجهود بالتجراح بانتظام أول إرسال تليفزيونى فى بريطانيا عام ١٩٣٦ .

وبهذا دارت عجلة الإنتاج لبعض الشركات البريطانية ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عشية اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية (سبتمبر ١٩٣٩) كان عدد أجهزة التليفزيون المباعة هناك قد تجاوزت العشرين ألفاً ويعودة الإرسال للانتظام مرة أخرى بعد نهاية الحرب بلغ عدد هذه الأجهزة نحو ٥ مليون جهاز (عام ١٩٥٥) فى بريطانيا وحدها ، وفى الولايات المتحدة ارتفع عدد حائزى التليفزيون من ١٣ ٪ عام ١٩٥٠ إلى ٦٨ ٪ من إجمالى السكان عام ١٩٥٥ ثم إلى ٩٠ ٪ عام ١٩٦٢ وتجمع (٥٠) الدراسات المتخصصة فى مجال الاتصال الجماهيرى على خطورة وفاعلية الإرسال التليفزيونى بالنسبة لبقية مصادر الإعلام الأخرى مثل الصحافة والإذاعة والسينما ... الخ لتوافر شروط ثلاثة لا تجتمع لغيرها من أدوات الإعلام وهذه الشروط هى :

أولاً : أنها أداة للاستمتاع لا تنتظر المشاهد حتى يأتى إليها وإنما هى تقتحم عليه مسكنه وتفرض نفسها فرضاً .

ثانياً : ما ينشأ لدى مشاهديه من استعداد مسبق لتقبل ما يعرض عليهم أى ما يعرف فى العلوم النفسية بالاستعداد النفسى للتوحد مع الأبطال أو الأشخاص محل إعجابهم .

ثالثاً : أن وقت المشاهدة كبير إلى حد مدهش وأن تأثيره عبر حاستى (النظر والسمع) يعد فاعلاً إلى أقصى الحدود (٥١) .

على أية حال ، نرى من المناسب قبل التمرض لتجربة الإرسال التليفزيونى فى مصر ومدى تفاعلها

مع المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسلوكية أن نتوقف قليلاً عند مشكلات هذه الأداة الإعلامية والاتصالية في أكثر النماذج الرأسمالية تقدماً حتى نتبين بدرجة أكثر وضوحاً تضاعف الأثر السلبي للإرسال التليفزيوني في النموذج المصري ، ومن ثم تحديد مدى الغزو الثقافي والحضارى الأمريكى والغربى فى هذا المجال بشكل واضح وملحوس .

فمتذ أن بدأ الإرسال التليفزيونى المنتظم فى الدول الرأسمالية الصناعية (خاصه إنجلترا) عام ١٩٣٦ ثم عودته للانتظام فى أوائل عام ١٩٥٥ ، لم تنقطع هذه الدراسات التى حاولت تتبع الأثر القيمى (الإيجابى أو السلبي) لهذه الأداة الإعلامية الجديدة .
وحتى منتصف عام ١٩٧٥ بلغت هذه الدراسات نحو ألفين وثلاثمائة دراسة ومرجع عن التليفزيون^(٥٢) .

لعل من أبرز هذه الدراسات الدراسة التى أعدتها الأستاذة هيلد . ت هميلوت H.T.Himmelwiet بطلب من هيئه الإذاعة البريطانية B.B.C ومؤسسه نوفيلد Nofild واستمرت أكثر من عامين (١٩٥٦ - ١٩٥٨) عن " أثر التليفزيون على الأطفال والنشء فى بريطانيا" .
بيد أن تركيز دراسة الأستاذة هيلد . ت هميلوت المبكرة عن تأثير هذه الأداة الإعلامية على الأطفال (ما دون الثانية عشر) قد أفقد الدراسة طابع الشمول ، وإن كان على أية حال لم يفقدها أهميتها .

فإذا حاولنا إجراء جرد لنتائج أو نقاط بحث الدكتورة " هيلد" أمكننا استخلاص الحقائق التالية :

أولاً: تأثير أفلام الغرب الأمريكية على الأطفال فى بريطانيا .

لقد تبين من حصر إعداد البرامج التى تقدم على التناطين البريطانيين الرئيسيتين وقتئذ هما B.B.C والمحطة التجارية I.T.V أن القوام الرئيسى لمضمون البرامج هى قصص الغرب الأمريكية وقصص الجريمة والمغامرات القائمة على عنصر التباهى والتفاخر .

وقد كان من أهم القضايا التى شغلت فروض جميع الباحثين ، فى مجال الإعلام بشكل عام والتليفزيون بشكل خاص هو إلى أى مدى تؤثر مثل هذه النوعية من الأفلام على السلوك العدوانى لدى الأطفال ؟

وكان على الأستاذ Gerbner أن يقدم إجابة محددة على ذلك التساؤل من واقع دراسته الشهيرة التى قام بها أوائل عام ١٩٧٢ وذلك بتحليل مضمون Content Anylsis العنف المتضمن بما يعرضه التليفزيون الأمريكى خلال الثلاث سنوات (١٩٦٧ - ١٩٦٩) وقد أبرز البحث مجموعة من الحقائق فى هذا الصدد أهمها^(٥٣) :

١ - يوجد أعلى مستوى للعنف فى التلفزيون التجارى الأمريكى إذ تحتوى كل عشرة برامج على ثمانية برامج للعنف .

٢ - برامج الكارتون للأطفال ازداد فيها العنف بدرجة مشيرة ، فمن ٩٥ كارتوناً عرضت فى السنوات الثلاث محل الدراسة تبين أن أربعة منها فقط لا يحتوى على العنف .

وإذا أدركنا أن الأطفال فى الولايات المتحدة (٥ - ٦ سنوات) يقضون أمام التلفزيون نحو ٤ إلى ٥ ساعات يومياً أمكننا أن نتعرف بدقة على النسق القيمي والأخلاقى (القائم على تغليب عنصر القوة على الحق) لدى النشء فى الولايات المتحدة وتشير هذه المسألة السؤال التالى : من يقوم بالعنف؟ وما هى وسيلة العنف؟ وأخيراً ما هى نتائج هذا العنف؟

الحقيقة أن الإجابة من واقع تحليل مضامين ما يقدمه التلفزيون الأمريكى بشكل خاص لا يخرج عن التالى :

من يقوم بالعنف هم البشر غالباً وأن وسيلة العنف هى الأسلحة بمختلف أنواعها ثم وبالنتيجة فإن الجروح والقتل هى المحصلة .

وهكذا توقف الخبير الاستراتيجى الفرنسى الشهير " أندريه بوفر " ، لتحليل هذا النموذج الأمريكى ودرجة اضطرابه - برغم جاذبيته الشكلية لدى البعض - بقوله (لا تستطيع النخبة الأمريكية المثقفة التى صدعتها النزعة المتزمتة إلا أن ترفض الإلزامات المفرطة لهذا المجتمع واقتناره إلى روح إنسانية حقيقية وقد أرقى الرافضون للمجتمع الأمريكى الجديد بدون روية. فى تعاطى المخدرات وفى اللواط والتسول " الهيبيز " حتى أنهم اندفعوا إلى العنف الإجرامى فى حادثة الحى الغربى) (٥٤) .

وقد علق أحد أساتذة علم الإجرام فى الولايات المتحدة نفسها (جلوبك) على ذلك النمط الأمريكى بقوله (لا بد أن يكون للتركيز الدائم على الجرائم المثيرة أثر ناقل على ذهن النشء) (٥٥) .

وقد قام سميث Smith ومجموعة من الباحثين بمشاهدة جميع البرامج التلفزيونية التى عرضت فى مدينة نيويورك خلال أسبوع كامل من عام ١٩٥١ ووجد أن عدد أعمال العنف والتهديد التى ارتكبت فى هذه البرامج قد بلغت ٧٠٦٥ عملاً (٥٦) وإذا كانت دراسة سميث قد اعتمدت على التحليل الكمي فإن دراسة أخرى قد أجريت فى بريطانيا فى شهرى فبراير ومارس من عام ١٩٥٦ واعتمدت على منهج التحليل الكيفى ولم تخرج النتائج عن ذلك كثيراً ، فمحطة B.B.C عرضت نحو ٧٣٪ من تمثيلات الأطفال فى صورة مغامرات وازدادت هذه النسبة فى المحطة التجارية I.T.V وقد أدت هذه الرقائى فى الولايات المتحدة إلى دعوة مجلس الشيوخ الأمريكى لتشكيل لجنة فرعية (برئاسة السناتور كينغفورد) عام ١٩٥٦ لدراسة أثر التلفزيون على جناح الأحداث . وإن ظلت توصيات هذه اللجنة فى النهاية حبيسة الأدرج ، فالسياسة الإعلامية - والتلفزيونية - تشكلها هناك على أية

حال أصحاب المصالح والنفوذ.

لقد باتت البرامج التلفزيونية أحد أهم السلع التجارية في العالم الرأسمالي المعاصر وافتقدت بالتالي كثير من صفاتها الثقافية والإنسانية .

ثانياً : تأثير التلفزيون على نسق قيم الأطفال :

تبرز دراسة هيلموت ، حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، لعنا هنا نعتبرها من أبرز النتائج التي تكشف الدور الرجعي المتنامي لهذه الأداة الإعلامية من جهة ودورها في تزييف وعى النشء ، فتحليل مضمون ما قدمته برامج المحطتين الأساسيتين في بريطانيا - وقتئذ BBC & ITV يظهر أن النظرة العامة إلى الحرف اليدوية أنها عديمة القيمة والأهمية وتجد نمط حياة الطبقة البورجوازية والمتوسطة ومقارنة نتائج استطلاع آراء عينة الدراسة بالمجموعة الضابطة تبين أن عينة الدراسة أى الأطفال الذين يداومون على مشاهدة التلفزيون أكثر تطلعا إلى الطبقة المتوسطة والرغبة في شغل وظائفهم الإسرائيلية (دون الإنتاجية) (٥٧) .

بل إن التلفزيون البريطانى قد دعم النظرة المادية للأطفال وكذلك النجومية (٥٨) كما أن تحليل مضمون " التمثيليات " التي عرضها التلفزيون البريطانى تبين أن ٧٥٪ من الشخصيات التي أذيعت في المحطتين الرئيسيتين ينتمون إلى الطبقة البورجوازية العليا بينما ٧٪ فقط من الطبقة العاملة والأخيريون في أدوار ثانوية (٥٩) فمستوى معيشة الأولين مريحة والحجرات فسحة ومزئشة بطريقة فاخرة والشخصيات أنيقة * الملابس وقلك سيارة في معظمها .

ومن ناحية أخرى فقد أدى التلفزيون لتضاؤل ميل الأطفال بل وحتى الكبار للقراءة والاطلاع فمشاهدة التلفزيون في بريطانيا يعد من أكثر الأنشطة استحواداً على وقت فراغهم وكذلك في الكويت ومصر (٦٠) .

وبالمقابل فإن التلفزيون هناك لا ينمى المعلومات العامة لدى الأطفال ويرجع ذلك إلى نمط المشاهدة الذي يقتصر للتفاعلية من المشاهد والقائمين على إعداد وعرض البرامج .

بل وتصل نتائج هذه الدراسات إلى أن الأطفال الأقل ذكاءً (والأغبياء) هم الأكثر مشاهدة للتلفزيون في بريطانيا (٦١) . وأن الأطفال الذين يتمتعون بمستوى اجتماعى وعاطفى أفضل أقل مشاهدةً للتلفزيون (٦٢)

ثالثاً : تأثير التلفزيون على البناء الأسرى :

يرتبط تأثير التلفزيون على البناء الأسرى بعمليتين حيويتين تجريان في آن واحد :

الأولى : وهي طابع عملية المشاهدة التي تتسم بطابع السلبية حيث تبدو المشاهدة كمحاولة هروبية

(ترفيهية) تعيد للمشاهد توازنه الوهمى فى واقع متعدد المشكلات .

الغاية : أن الآباء قد أناطوا للتليفزيون مهمة القيام بعملية التنشئة الاجتماعية من خلال استسلامهم هم أنفسهم لقيم التليفزيون واسترسالهم فى المشاهدة أمام ابناهم .

فالتليفزيون يقوم بجمع شمل الأسرة ولكن دون تفاعل ومن ثم فليس من التصور أن يقيم علاقات مجانس أو تقارب بين أفراد الأسرة وهاتين العمليتين يمكن وصفهما بأنهما بكرسان واقع التفتت والانفصام .

حاولنا فى الجزء السابق بيان الأثر السلبى لهذه الأداة الإعلامية الجديدة ، فى مجتمعات تبدا أكثر انفتاحاً من الناحيتين الثقافية والديمقراطية وبالقطف فالتباين الواسع بين المعطيات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية هناك والأوضاع المصرية ، تؤكد فكرة "مضاعف الأثر السلبى" لعدة أسباب نذكر منها :

أولاً : أن المناخ الليبرالى الواسع نسبياً الذى تعيش فى ظلّه مختلف الطبقات الاجتماعية والفئات العمرية تؤدى إلى تنوع مصادر المعرفة من ناحية وفور الحاسة النقدية للمستمع أو المشاهد للبرامج التليفزيونية فى ناحية أخرى بعكس الحال فى البلاد الرأسمالية المتخلفة ومنها مصر حيث نجد تراثاً من العدا من قبل الطبقة الحاكمة وفى أجهزة الإعلام المختلفة لأى صوت معارض أو نبوة نقدية .

ثانياً : أن تنوع أساليب قضاء وقت الفراغ لدى الأطفال عموماً فى هذه الدول تفرض تقليص عدد ساعات المشاهدة لأجهزة تزييف الوعى (خاصة التليفزيون) وهو ما يتناقض تماماً لدى الأطفال المصريين حيث يؤثر انخفاض مستوى المعيشة من جهة وانعدام الرعاية الاجتماعية والرياضية وتخلف أجهزة ومؤسسات الشباب والطفولة إلى تنامى الأثر السلبى لأبسط الأدوات تناولاً للطفل (التليفزيون) ومن ثم تتضاعف عدد ساعات المشاهدة وبالتالي ترسيخ قيم وعادات اجتماعية قد تكون غير بناءة من وجهة النظر الاجتماعية والسياسية والثقافية كما أجمعت على ذلك تلك الدراسات الجادة التى قدمها عدد من المهتمين بثقافة الطفل فى مصر^(٦٣) وهنا نجد تجسيدات الوعى الزائف ذاتها فى السلوك المشاهد فى السنوات الأخيرة لقطاعات الشباب والأطفال .

ثالثاً : أن الغزو الثقافى يتجسد أكثر فأكثر فى هذه الأداة الإعلامية الخطيرة ويتم استزراع قيم النموذج الأمريكى بقسوة فى وجدان قطاعات واسعة من الشباب والأطفال ليس من شأنه فحسب تشويه نمق القيم لهؤلاء وخلق ازدواجية فكرية وسياسية وإنما هو الأهم خلق حالة اغتراب عن قضايا الوطن وهمومه والانتماء بمعناه الواسع لهذا النموذج الأمريكى الجذاب .

يكفى أن نشير إلى أن ما صدرته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨١ فحسب إلى دول العالم الثالث من برامج تليفزيونية قد بلغ نحو ١٠٠ ألف ساعة^(٦٤) .

كما أن دور السينما في العالم كله تخصص أكثر من نصف وقتها لعرض الأفلام الأمريكية (١٦٥) . وهو مادفع البعض إلى التحذير من تهاقم هيمنة الفكر الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً أو على حد تعبير أحد العاملين في الحقل الدبلوماسي المصري " انتشار ومقبولية الإطار القيمي الأمريكي في العالم " (١٦٦) .

فإذا كانت الإذاعة هي أداة السيطرة الطبقية من جانب الرأسمالية المصرية على بقية الطبقات فإن " التلفزيون قد نقل أداة السيطرة الفعلية للرأسمالية العالمية عبر عمليات الغزو الثقافي وتصدير البرامج التلفزيونية من الغرب عموماً والولايات المتحدة خصوصاً إلى الواقع الاجتماعي المحلي . فإذا أخذنا الإرسال التلفزيوني في مصر خلال إحدى السنوات كمثال لتحديد طبيعة التوجه الإعلامي من قبل النظام السياسي في مصر لبقية الطبقات الاجتماعية نكتشف إلى أي مدى تمثل تزييف الوعي هدفاً أساسياً .

فقد بلغت عدد ساعات البث التلفزيوني خلال عام ١٩٨٩/٨٨ نحو ١١٧٥٦ ساعة أي بمتوسط يومي يصل إلى ٣٣ ساعة و١٣ دقيقة خص منها القناة الأولى نحو ٤١.٦٤٪ بمتوسط يومياً والقناة الثانية ٣٦.٥٪ والقناة الثالثة ١٥.٢٪ والرابعة ٦.٦٪ (١٦٧) .

وبمقارنة عدد ساعات الإرسال في مصر ببلد متقدم كالسويد نجد أن الأخيرة لا تتعد نسبة البث التلفزيوني لديها ٦٠٪ من ساعات البث التلفزيوني في مصر (١٦٨) .

ويقرر الكتاب الإحصائي لاتحاد الإذاعة والتلفزيون حقيقة تكامل القنوات من حيث الأهداف العامة وتنافسهما من حيث الشكل والإطار الفني فحسب والبيان التالي يشير إلى التوزيع النوعي (البرامجي) لساعات البث التلفزيوني لعام ١٩٨٩/٨٨ .

جدول رقم (٥٧)

التوزيع النوعي لساعات البث التلفزيوني لعام ١٩٨٩/٨٨ على القنوات الأربعة .

| نوع البرنامج | المتوسط اليومي للإرسال | | % |
|----------------|------------------------|-------|-------|
| | ساعة | دقيقة | |
| ثقافية ودرامية | ١٢ | ٢ | ٣٦.٥٪ |
| ترفيهية | ٤ | ٣٨ | ١٣.٤٪ |
| خدمات مرجحة | ١ | ٨ | ٣.٣٪ |
| سياسي | ٤ | ٢٩ | ١٣.٤٪ |
| ديني | ٣ | ٥٢ | ٩.٠٪ |
| تعليمي | ١ | ٤٧ | ٥.٣٪ |
| إعلانات تجارية | - | ٤٣ | ٢.٢٪ |
| برامج الطوائف | ٥ | ٢ | ١٦.٧٪ |
| إجمالي | ٣٣ | ١٣ | ١٠٠٪ |

المصدر : اتحاد الإذاعة والتلفزيون ، الكتاب السنوي لعام ١٩٨٩/٨٨ ص ١٣٠ .

قد يكون من المناسب التوقف هنا قليلاً لإبراز مجموعة من الحقائق التي تلقى مزيداً من الضوء على هذا التوزيع وذلك بتحليل مضمون ما يقدم للمشاهدين عبر هذه البرامج .

ثانياً : نلاحظ من هذه البيانات افتقار البث التليفزيونى المصرى " للتوازن البرامجى " حيث غلبه البرامج الترفيهية التي تتضمن اهتماماً كبيراً بالأنشطة الرياضية خاصة مباريات كرة القدم التي رغم مظهرها الحيادى ، ترسخ فى الواقع تعصباً شديداً تتخلف من التاحيتين الاجتماعيه والثقافية وتخلق اهتمامات للمواطنين بعيدة عن همومهم الطبقيه والاجتماعيه الحقيقيه وكذا خلق المناخ المنافى لروح الانتماء للوطن ولقضاياه الكبرى .

ثالثاً : نلاحظ كذلك التوسع فى البرامج الدينية (الإذاعة ١٨.٨ ٪ والتليفزيون ٩.٢ ٪) كمحاولة لعلاج إفلاس الفكر والثقافة البورجوازيين وإلباس هذا الإفلاس غطاءً دينياً شرط ألا يبتعد هذا الغطاء عن نفس المضمون الاجتماعى الذى يكرس واقع الاستغلال القائم .

رابعاً : برغم غياب معايير واضحة حول أساس هذا التصنيف (الثقافى مثلاً) فسوف نلاحظ أن بعض البرامج الترفيهية أو التي تحمل طابعاً مقامراً (فوازير رمضان مثلاً) تصنف على أساس أنها برامج ثقافية وتشير المتابعة الدورية للبرامج التي تقدم فى شهر رمضان من كل عام إلى تنامى روح المضاربة والمقامرة فى المجتمع بفعل برامج المسابقات (الفوازير) التي تخلو فى معظمها من محتوى ثقافى ووطنى وتاريخى جاد ومستول ومن المؤكد أن أكثر الطبقات والفئات تحلقاً حول هذه البرامج (الإذاعة والتليفزيون) هم الفقراء الذين يداعبهم حلم الثراء المفاجئ عبر جائزة من جوائز هذه المسابقات.

خامساً : وبالتوغل أكثر فى مضامين البرامج الدرامية نكتشف أن هذا النوع من المقامرات والمقامرات تمثلى بالمسلسلات المحلية منها والأجنبية وبخاصة الأمريكية حيث تتجاوز نسبة ما يقدم من المسلسلات الأمريكية بالتليفزيون المصرى عموماً (النواعات معظمها أمريكى) نحو ٤٠٪ من إجمالى العروض ، وترتفع هذه النسبة فى المسلسلات البوليسية لأكثر من ٦٥ ٪ وبما لا شك فيه أن ما تحمله هذه المسلسلات من قيم وإمكانات الحلول الفردية والسوبر مان (رجل بسطة ملايين دولار) هى تجسيد حى لما نسميه " استزواج قيم سهلة مدمرة فى آن معاً " لعقليه المشاهد المصرى والطفل المصرى على وجه الخصوص وهو ما من شأنه تخليق المواطن " اللاتمنى " أو المقترّب " عن قضايا الوطنيه والاقتصاديه والاجتماعيه .

سادساً : نأتى إلى برامج الإعلانات والتي تشكل بحد ذاتها نغماً اقتصادياً يؤدي وظيفة اجتماعية وقيمية شديدة التأثير ففى دراسة قام بها البروفيسر Bandura وهو من رواد نظريه التعليم الاجتماعى عن تأثير الاعلانات التجارية على الأطفال فى الولايات المتحدة تبين أن لهذا النوع من البرامج تأثير خطير على المشاهدين عموماً والأطفال خصوصاً حيث أظهرت دراسته أن ٧٤٪ من

أطفال عينة الدراسة يتنون أغاني الإعلانات التجارية^(٧١) وبالمقابل يتبين بتحليل مضمون إعلانات التلفزيون المصرى أن محتوى الإعلان الثقافى (المسرح - الكتاب - المعارض الفنية - المؤتمرات العلمية ... الخ) تكاد تكون معدومة بينما تتعاطم مساحة الزمن التى تشغلها الإعلانات التجارية والاستهلاكية وهو ما دفع البعض للإشارة إلى تأثير التلفزيون على الأطر القيمية وإفساد الوعاء اللغوى للفكر المصرى والعربى^(٧٠).

سادساً : نأتى أخيراً إلى أكثر أوجه الحركة الثقافية تأثيراً بالإرسال التلفزيونى ألا وهى القراءة والاطلاع بالمكتبات العامة والحقيقة أننا لا نستطيع أن نجزم بأن انخفاض عدد القراء وحركة الاستعارة تعود أساساً إلى تأثير التلفزيون السلبى فهذه الظاهرة هى حصيلة الاغتراب عموماً الذى يعانیه قطاع واسع من الشباب المصرى ، والذي بدأ فى البروز منذ هزيمة يونية عام ١٩٦٧ فعلى سبيل المثال انخفض عدد القراء المترودين على دار الكتب من ٣٢ ألف قارئ عام ١٩٧٨ إلى أقل من ١٣ ألفاً عام ١٩٨٠^(٧١) .

أما المكتبات القرعية فقد شهدت انخفاضاً مماثلاً من ٤٢٢ ألف إلى ١٨٤ ألف تقريباً خلال نفس الفترة والظاهرة تمتد إلى حركة الاستعارة كما أشرنا حيث انخفضت أعداد الكتب المعارة فى دار الكتب من ٩٠ ألف كتاب إلى ٢٦ ألف عام ١٩٨٠ أما المكتبات القرعية فقد انخفضت من ٧٣٤ ألف كتاب إلى ٤٠٦ ألف تقريباً خلال نفس الفترة^(٧٢) .

عموماً سوف نعود لتناول هذه الظاهرة بالتفصيل فى السطور القادمة .

٣ - المسرح .. الكتاب .. الصحافة :

تتميز هذه المعزوفة الثلاثية بكونها أدوات للتعبير تتجاوز أحياناً كثيرة القيود القاسية المفروضة على وسائل الإعلام والاتصال الأخرى فى عالمنا المعاصر سواء كانت هذه الشروط أو القيود مفروضة من جانب السلطات والحكومات أو من جانب الطبقات البورجوازية المهيمنة ذاتها .

ذلك أن هذه النشاطات قد ارتبطت منذ فجر الحضارة الإنسانية خاصة الحضارتين اليونانية والرومانية بانتزاع الإنسان/ الفرد والإنسان/ الجماعة لحق التعبير عن أفكاره ومصالحه .

وهكذا جاء المسرح الدرامى للثلاثى اليونانى (يوربيدس - اسخيلوس - سوفوكليس) منذ خمسة قرون قبل ميلاد المسيح انعكاساً صادقاً لواقع التناقض الاجتماعى والسياسى داخل المجتمع الأثينى القديم بين الحزب الارستقراطى من جهة والحزب الديمقراطى من جهة أخرى.^(٧٣)

وكذلك تحمل مضامين مسرحيات " شكسبير " (١٥٤٤ - ١٦١٦) تلك الروح التلقية لمجتمع يحتضن فى جوفه ملامح عالم جديد وحضارة إنسانية أكثر تقدماً من حضارة المجتمع الإقطاعى القائم وقتئذ . ولذا فليس فى وسع الفنان أن يجرب على حد تعبير "أرنست فيشر" شيئاً غير ما يقدمه له

وفى مصر انتقلت قوالب المسرح الأوربي منذ مطلع القرن العشرين على يد مجموعة من الفنانين الشوام والمصريين (جورج أبيض - يعقوب صنوع - زكى طليمات - يوسف وهبى ... الخ) بكل ما تحمله من مضامين وقوالب خاصة بالمجتمعات الأوربية وبالأشكال الدرامية التى باتت أحد أهم المعالم المميزة للحضارة الجديدة هناك .

والحقيقة أن المسرح المصري والعربى لم يحقق لنفسه وجوداً مستقلاً فى رسالته وأدواته إلا بظهور كتابات توفيق الحكيم منذ العقد الثانى من هذا القرن بمسرحيته الشهيرة (أهل الكهف ... الخ) .

وامتدت هذه المحاولات بتلاونها الإصلاحية والاجتماعية فى أعمال "القريد فرج" و " نعان عاشور " و " يوسف ادريس " منذ منتصف الاربعينات وحتى منتصف الستينات .

ومع اشتداد التناقضات الاجتماعية فى مصر واتساع دائرة الاستقطاب الطبقي تبرز إلى السطح أكثر الأعمال الفنية والمسرحية اكتمالاً واتساقاً مع الطبقات الشعبية وطموحها وهكذا جاءت أعمال محمود دياب ولجيب سرور وغيرها تعبيراً عن معطيات اجتماعية واقتصادية جديدة دخل بها المجتمع والفكر دائرة الصراع المتفالم بحثاً عن مخرج أكثر إنسانية .

ويربط أحد أبرز النقاد والمفكرين المصريين (د. لويس عوض) بين ظاهرة ازدهار المسرح المصرى فى الستينات وعملية المصالحة السياسية التى تمت بين الكتاب الاشتراكيين ونظام الرئيس عبد الناصر عام ١٩٦١ ويؤكد على أن ذلك التصالح ظل محصوراً فى دائرة الأدب والفن أكثر منه فى مجال الفكر والعمل السياسى المستقل (٧٥) .

هذا الازدهار " الهش " شهد بدورة تدهوراً وانحطاطاً على إثر الهزيمة العسكرية التى تعرضت لها الأنظمة العربية فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ والتى انعكست سلباً على قطاع الشقافه والفن بشكل عام والمسرح بصورة خاصة .

فمن الآن وصاعداً ، أخذ دور الرقابة يتزايد كلما تصاعدت نبرات المعارضة وتلميحات من جانب قطاع عريض من الكتاب والفنانين حتى أن البعض قد أطلق على عام ١٩٦٩ ؛ عام مصادرة الأعمال الفنية والمسرحية حيث تم مصادرة نحو تسعة عشر عملاً مسرحياً وروائياً لكبار الكتاب المسرحيين المصريين .

فإذا أخذنا بالاعتبار الدور المتنامى للتليفزيون على عقل ونمط قيم وسلوك المواطن المصرى خلال هذه الفترة فإن النتائج المنطقية لم تكن لتخرج عن تفشى الأعمال المسرحية والفنية الخالية من المضمون والتى ستتجه للبروز أكثر فأكثر بعد عام ١٩٧٤ وسيطرة القطاع الرأسمالى الخاص على قطاع المسرح والسينما بكل مستجدات القيم التى صاحبت الحقبة النفطية (٧٦) .

فإذا أخذنا المؤشرات الإحصائية المتاحة برغم ما يشوبها عادة من عدم دقة تظهر أن لىالى العرض

المسرحية لمسارح : القطاع العام " قد انخفضت من ١٣٦٠ ليلة عرض عام ١٩٦٦/٦٥ إلى أدنى مستوى لها عام ١٩٨٠ حيث بلغت ٧٥١ ليلة عرض (٧٧) .

وبالمقابل انخفضت عدد المسرحيات المعروضة من ٧٤ مسرحية إلى ٢٠ مسرحية فقط خلال نفس الفترة (٧٨)

هذا عن مسارح الدولة فماذا عن مسارح القطاع الخاص ؟

شهدت مسارح القطاع الخاص ، ازدياداً في عدد الفرق المسرحية وكذا في عدد الرواد خاصة في السنوات الممتدة من عام ١٩٧٥ وحتى أواخر عام ١٩٧٩ وذلك بسبب انتعاش الحركة السياحية في مصر من جهة (خاصة السياح العرب) وكذلك بفضل الرواج المالي الذي أصاب قطاعات مهنية وحرفية محددة ،

ويقدم إلينا البيان التالي صورة عن النشاط المسرحي في مصر بالقطاعين الحكومي والخاص طوال العشر سنوات الممتدة من عام ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٥٨)

النشاط المسرحي بالقطاعين الحكومي والخاص

خلال الفترة ١٩٧١ - ١٩٨٠

| السنة | عدد ليالي العرض | عدد الرواد | | | متوسط رواد الحفل | اجمالي الإيراد بألف |
|-------|-----------------|------------|--------|--------|------------------|---------------------|
| | | تذاكر | دعوات | الجملة | | |
| ١٩٧١ | ١٩٠٢ | ٥٠٥٧٤٨ | ١٢٧٢٣٧ | ٦٣٢٩٨٥ | ٣٣٢ | ١٤٦ |
| ١٩٧٢ | ٢٠٣٥ | ٥٩١٣٦٩ | ١٤٢٩٤١ | ٧٣٤٣١٠ | ٣٦٠ | ٢٠٨ |
| ١٩٧٣ | ٢٠٥٢ | ٤٥٠٨٩١ | ٧٢٩٢٩ | ٥٢٣٨٢٠ | ٢٥٥ | ١٤٠ |
| ١٩٧٤ | ٢١٥٢ | ٦٤٦١٥٢ | ٧٨٩٢٧ | ٧٢٥٠٧٨ | ٣٣٧ | ٢٠٣ |
| ١٩٧٥ | ١٨٤١ | ٤٠٠٦٥٦ | ٨٦٠٦١٧ | ٤٨٦٦٧٢ | ٢٦٤ | ١٩٠ |
| ١٩٧٦ | ١٩٦٨ | ٣٩٣١٨٨ | ١٢٤٥١٠ | ٥١٧٦٩٨ | ٢٦٣ | ٢٠٦ |
| ١٩٧٧ | ١٨٧٩ | ٤١٧٠٠٦ | ٦٧٣٢٦ | ٤٨٤٣٣٢ | ٢٥٨ | ٢٤١ |
| ١٩٧٨ | ١٩٥٧ | ٥٤٥٦٣٦ | ٤٥٧٠٤ | ٥٩١٣٤٠ | ٣٠٢ | ٤٢٧ |
| ١٩٧٩ | ١٧٢٣ | ٤١٩٨٠٩ | ٥٥٢٣٦ | ٤٧٥٠٤٥ | ٢٧٦ | ٣٦٨ |
| ١٩٨٠ | ١٩٤١ | ٥٢٥٢٢١ | ٣٨٩٣٦ | ٥٦٤١٥٧ | ٢٩١ | ٤٧٩ |

المصدر : وزارة الثقافة ، المجلس الاعلى للثقافة ، " الثقافة في عهد السادات " ١٩٨٢ ص ٢٠٩ .

وستلاحظ من البيان السابق ، أنه برغم تزايد إيرادات القطاع المسرحي من ١٤٦ ألف جنيه عام ١٩٧١ إلى ٤٧٩ ألف جنيه عام ١٩٨٠ فإن عدد ليالي العرض المسرحية قد انخفضت بعد عام

١٩٧٤ وكذا عدد المشاهدين قد انخفض بصورة ملموسة من ٦٣٣ ألف مشاهد تقريباً إلى أقل من ٥٦٥ ألف مشاهد خلال نفس الفترة وذلك على الرغم من التزايد الحادث في إعداد السكان ... ١٢

لقد كان هذا التدهور في النشاط المسرحي مواكباً للتحول الذي طرأ على مضمون ودور المسرح ومناظره للتحول الذي طرأ على المجتمع ككل ومخاطبة فئات اجتماعية قديمة/جديدة تمت مع هذا التحول في مصر .

إذا انتقلنا من قطاع المسرح بكل ما يتسم به من خصوصية وتفرد ، إلى الكتاب وحركة النشر والقراءة فسوف تواجهنا مجموعة من الحقائق القاسية :

الحقيقة الأولى :

إن التحليل الكمي لما أخرجته المطبعة الثقافية التابعة لأهم دور نشر في مصر وهي الهيئة العامة للكتاب خلال الفترة ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٠ يشير إلى تدهور ثقافي شامل فعلى سبيل المثال انخفضت عدد الكتب العربية المؤلفة (العناوين الجديدة) انخفاضاً كبيراً فمن ١٣٢ عنواناً (كتاباً) عام ١٩٧١ إلى ٧٩ عنواناً عام ١٩٨٠ وبالمقابل تدهورت عدد النسخ المطبوعة من ٦٢٧ ألف نسخة تقريباً إلى ٢٩٢ ألف فقط خلال نفس الفترة ، وكذا بالنسبة لبقية الكتب والمجلات وهو ما يظهره البيان التالي .

جدول رقم (٥٩)

نشاط المطبعة الثقافية في مصر خلال الفترة ١٩٧١ - ١٩٨٠

| السنة | الكتب المؤلفة بالعربية | | الكتب الأجنبية والمترجمة | | المجلات والكتب المجزأة | | الجملة | |
|-------|------------------------|---------|--------------------------|--------|------------------------|--------|--------|---------|
| | العدد | النسخ | العدد | النسخ | العدد | النسخ | العدد | النسخ |
| ١٩٧١ | ١٣٢ | ٦٢٧٤٠٠ | ٥٥ | ٢٠٧٦٠٠ | ٤٥ | ٢٧٦٩٠٠ | ٢٣٢ | ١١١١٩٠٠ |
| ١٩٧٢ | ١٥٧ | ١٦١٠٤٧٣ | ٢٥ | ٨٥٤٠٠ | ٩١ | ٥٣٩٧١٤ | ٢٧٣ | ٢٢٣٥٥٨٧ |
| ١٩٧٣ | ٨٢ | ٤٧٨٥٠٠ | ٢٢ | ٦٤٠٠٠ | ٦٤ | ٤٧٦٠٠٠ | ١٦٨ | ١٠١٨٥٠٠ |
| ١٩٧٤ | ٩٢ | ٣٦٠٤٠٠ | ٢٠ | ٦٨٧٠٠ | ١٢١ | ٦٨٧٠٠٠ | ٢٣٣ | ١١١٦١٠٠ |
| ١٩٧٥ | ١٤٥ | ٥٠٩٨٠٠ | ٩ | ١٤٧٠٠ | ١١٤ | ٦٣١٥٥٠ | ٢٦٨ | ١١٦٦٠٥٠ |
| ١٩٧٦ | ١١٣ | ٣٨٥٥٠٠ | ٢٩ | ١٢٦٩٠٠ | ٩٦ | ٤٩٦٥٠٠ | ٢٣٨ | ١٠٠٨٩٠٠ |
| ١٩٧٧ | ٩٢ | ٣١٢٠٠٠ | ٢٥ | ١٠١٢٠٠ | ٩١ | ٤١٢٧٠٠ | ٢٠٨ | ٨٢٥٩٠٠ |
| ١٩٧٨ | ٨٢ | ٣٣٧٠٢٠ | ٢١ | ٩٢٠٠٠ | ٨٥ | ٣٨٧٨٠٠ | ١٨٨ | ٨١٦٨٢٠ |
| ١٩٧٩ | ٦٦ | ٢٢٥٤٠٠ | ٨ | ٢٥٦٠٠ | ٦٤ | ٢٨٦٨٠٠ | ١٣٨ | ٥٣٧٨٠٠ |
| ١٩٨٠ | ٧٩ | ٢٩٢٣٠٠ | ١٢ | ٢٨٩٠٠ | ٥٩ | ٢٦٣٧٠٠ | ١٥٠ | ٥٩٣٩٠٠ |

المصدر : الثقافة في عهد السادات ، مرجع سابق .

أى أن عدد النسخ المطبوعة من الكتب والمجلات قد انخفضت من ١.١ مليون نسخة عام ١٩٧١ إلى أقل من ٦٠٠ ألف نسخة عام ١٩٨٠ (بمعدل انخفاض يصل إلى ٥٠٪ خلال الفترة) هذا على الرغم من الزيادة الكبيرة فى أعداد السكان التى شهدتها مصر خلال نفس الفترة والتي تقدر بأكثر من ٢٧٪ تقريباً ١١

الحقيقة الغائبة:

يرتبط تفسير ظاهرة التدهور فى المطبوعات الثقافية بالطابع السلفى (الصنى) الذى أصاب الثقافة المصرية خلال هذه الفترة فالتحليل الكيفى للمطبوعات نفسها من جانب وحجم الكتب الواردة من أقطار الخليج والسعودية (كتب التراث) تشير إلى غلبة المحتوى الدينى والسلفى على الثقافة المصرية خلال هذه الحقبة التاريخية نازعاً كل سياق تاريخى عن التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى تشهده البلدان العربية وبخاصة مصر دافعاً إياها إلى حافة هاوية سحيقة من التخلف والجهل .

وبالمقابل فإن هذه الفترة قد شهدت مطاردات بوليسية وإدارية للمجلات والكتب الاشتراكية بل وحتى الليبرالية والتي تحمل مضموناً ثقافياً جاداً (الألف كتاب - اخترنا لك - إعلام العرب - المسرح العالمى - الكاتب المصرى - الطليعة الخ) والبيان التالى يشير إلى المحتوى الفكرى للمطبوعات الثقافية فى البلاد خلال هذه الفترة .

جدول رقم (٦٠)

الكتب المؤلفة والمترجمة وعدد النسخ

(المودعة إيداعاً قانونياً خلال الفترة من عام ١٩٨٠ - ١٩٨٤)

| النسبة المئوية لعدد الكتب المترجمة بالتقريب | النسبة المئوية لعدد الكتب المؤلفة بالتقريب | الكتب المترجمة | | الكتب المؤلفة | | الفنون |
|---|--|----------------|-------|---------------|-------|---------------|
| | | عدد النسخ | العدد | عدد النسخ | العدد | |
| ٪ ١.٥ | ٪ ١.٣ | ١١٠ | ١١ | ٢٠٤٠ | ٢٠٤ | معارف عامة |
| ٪ ٨.١ | ٪ ٣.٢ | ٥٧٠ | ٥٧ | ٤٩٨٠ | ٤٩٨ | فلسفة |
| ٪ ٢٢.١ | ٪ ٢٢.٢ | ١٥٦٠ | ١٥٦ | ٣٤٣٤٠ | ٣٤٣٤ | ديانات |
| ٪ ١٤ | ٪ ٢٢.٦ | ٩٩٠ | ٩٩ | ٣٤٩٦٠ | ٣٤٩٦ | علوم اجتماعية |
| ٪ ١٥ | ٪ ٤.٤ | ٤٠ | ٤ | ٦٨٥٠ | ٦٨٥ | لغات |
| ٪ ١٠.٢ | ٪ ٧.٢ | ٧٢٠ | ٧٢ | ١١١١٠ | ١١١١ | علوم بحتة |
| ٪ ٦.٢ | ٪ ١٠.٦ | ٤٤٠ | ٤٤ | ١٦٤٣٠ | ١٦٤٣ | علوم تطبيقية |
| ٪ ٢.٣ | ٪ ٢.٨ | ١٦٠ | ١٦ | ٤٣٩٠ | ٤٣٩ | فنون |
| ٪ ٢٥.١ | ٪ ١٦.٣ | ١٧٧٠ | ١٧٧ | ٢٥٢٦٠ | ٢٥٢٦ | آداب |
| ٪ ١٠ | ٪ ٩.٢ | ٧٠٠ | ٧٠ | ١٤١٩٠ | ١٤١٩ | تاريخ |
| ٪ ١٠٠ | ٪ ١٠٠ | ٧٠٦٠ | ٧٠٦ | ١٥٤٥٥٠ | ١٥٤٥٥ | المجموع |

المصدر : مجلة رسالة المعلومات ، مركز المعلومات والتوثيق بالهيئة العامة للكتاب ، العدد الخامس ١٩٨٦ ص ٦٩ .

ستصير لهذا المستجدات على الساحتين الثقافية والاجتماعية نتائج وخيمة بالنسبة لتضييق النخبة الثقافية والمهتمين بالقراءة عموماً .

فبينما كان عدد القراء في المكتبات العامة عام ١٩٧١ يربو على ٣٢ ألفاً فإنه أخذ في الانخفاض السريع عاماً بعد آخر حتى بلغ أدنى مستوى له (١٢ ألفاً) وكذلك فقد انخفض عدد المترددين على المكتبات الفرعية من ٤٢٢ ألفاً إلى ١٨٤ ألفاً عام ١٩٨٠ أما الكتب المعارة فقد انخفضت بدورها من ٩٠ ألفاً تقريباً إلى ٢٦ ألفاً خلال نفس الفترة .

جدول رقم (٦١)

عدد القراء والكتب المعارة والرصيد في كل من دار الكتب ومكتباتها الفرعية
خلال الفترة من ١٩٧١-١٩٨٠

| السنة | القراءة | | الكتب المعارة | | الرصيد | |
|-------|-----------|------------------|---------------|------------------|-----------|------------------|
| | دار الكتب | المكتبات الفرعية | دار الكتب | المكتبات الفرعية | دار الكتب | المكتبات الفرعية |
| ١٩٧١ | ٣٢.٤٧ | ٤٢٢٤٩١ | ٩.٣٨٢ | ٧٣٤٥٦٩ | ٧١٢٦.٨ | ٢٨٢٣.٦ |
| ١٩٧٢ | ٣٥٤١٥ | ٣١٤٤٥٣ | ١.٥٠٠.٦ | ٦.٧٥٨٢ | ٥٥٦٦٤٢ | ٣.٥٩٦٧ |
| ١٩٧٣ | ٢٤.٢١ | ٢٧٧١٧٣ | ٤٨١٧. | ٤٩٥٩٦٤ | ٥٧٧٣٧٥ | ٣٢٩٧٨. |
| ١٩٧٤ | ٢١٣١٣ | ٢٦١٩٣٩ | ٤.٤٤٧ | ٤٧٢٤.٧ | ٥٩.٣٤٧ | ٣٤٢٣.٨ |
| ١٩٧٥ | ٢١٨٦٤ | ٢٦٤١.٥ | ١٩٣٩١ | ٤٥٥٨١٣ | ٦.٧٦١. | ٣٥٦٥٣٤ |
| ١٩٧٦ | ٢٢٤٥١ | ٣٧٧٥٣٤ | ٢١٣٥١١ | ٤٦٦٣٧٢ | ٦٢٥٩٥١ | ٣٧٨٢٧٤ |
| ١٩٧٧ | ٢٣٤٤٢ | ٢٦٦٥٥٧ | ٢١٦٦٧٥ | ٤٩٦٤٣ | ٦٣٩٣٧٤ | ٣.٢٤٦٥ |
| ١٩٧٨ | ٢٤٤٩. | ٢٩١.٧٣ | ١٢٩٧٦. | ٥.١١٣. | ٦٥٧١١٥ | ٣.٥٩١٧ |
| ١٩٧٩ | ١٨٤١٧ | ٢٦٥٥٤ | ٣٩.٣٥ | ٤٤٣٩٦٧ | ٦٦٨٥٩٨ | ٢٧٢٨٧٩ |
| ١٩٨٠ | ١٢٣٩٦ | ١٨٤٢٤. | ٢٦٢٣٨ | ٤.١٢.١ | ٦٨٥٧٤١ | ٣٣١٤٢٣ |

المصدر : الثقافة في عهد السادات ، مرجع سابق ص ١٣٣ .

ويتبين من هذه الأرقام مدى التحول الذي طرأ على ميل المواطنين نحو التعامل مع الكتاب كأحد أدوات الفكر والثقافة وهي دلالة رغم طابعها الكمي تظهر مدى تدهور دور الكتاب لصالح الأدوات الإعلامية الأخرى وبخاصة التليفزيون وإذا كان هذا التحول في حد ذاته يعكس ميلاً نفسياً واضحاً للتعامل السهل الراكد والحامل مع الثقافة والفكر ، فالموكد أن مرد ذلك يعود إلى التحولات الاجتماعية العميقة وسيادة القيم الاستهلاكية في المجتمع .

ربما كانت الحسنة الوحيدة التي جاءت بها السنوات الأخيرة هو اهتمام حرم رئيس الجمهورية

(سوزان مبارك) منذ أواخر عام ١٩٩٠ بنشر المكتبات العامة ودعمها في جميع المناطق التعليمية والشبابية وهو ما ساهم في استعادة روح الاهتمام بالكتاب من جانب بعض أجهزة الدولة وعادة القراءة والاطلاع والاستعارة لدى عشرات الآلاف من طلاب المدارس في مصر .

نأتى أخيراً إلى الصحافة المصرية ، حيث يكاد يكون من المتفق عليه أن الصحافة المصرية والعربية عموماً قد جاءت مختلفة بعض الشيء عن مثيلتها في أوروبا . حيث برزت الأخيرة كأداة من أدوات الصراع الاجتماعي والسياسي وفي آتون المعارك بين القوة الاجتماعية المختلفة منذ القرن السادس عشر تقريباً ، بينما نجد نشأة الصحافة العربية على يد الحكام أنفسهم (العراق عام ١٨١٦ ثم مصر عام ١٨٢٧) هذا على الرغم من ظهور الطباعة في أقطار الشام متأخرة عن ذلك التاريخ (١٧١٠-١٧٩١) .

وبسبب من هذا الطابع الخاص لنشأة الصحافة العربية والمصرية ، وبفعل القهر والاضطهاد العثماني الوحشي للكتاب والصحفيين العرب المناوئين لسلطوتهم ، لم تشهد الحركة الصحفية العربية نمواً كبيراً حتى سقوط الخلافة العثمانية في تركيا ذاتها عام ١٩٠٨ وكذا باستزراع قيم ومفاهيم الاستعمار الكولونيالي الأنجلوفرنسي منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً^(٨٠) .

والحقيقة أن الصحافة الشعبية المصرية في تاريخها الممتد نحو مائة عام أو يزيد ، ظلت المعبر عن أفكار النخب الفكرية للرأسمالية الناشئة وتياراتها المختلفة سواء كان هذا التيار مهادناً للاستعمار الأجنبي أو منتمى إلى تيار الطبقة الرأسمالية المصرية الصاعدة ومنذ صدور جريدة اللواء عام ١٩٠٤ علي يد الزعيم مصطفى كامل وحتى عام ١٩٥٠ كانت هذه الصحف والمجلات التي صدرت في مصر قد بلغت ٢٢٥ صحيفة ومجلة منها ٢٢ صحيفة يومية وأسبوعية (القاهرة وحدها ١٢ صحيفة يومية وأسبوعية) ونحو ٢٠٣ مجلة (القاهرة وحدها ١٥٠ مجلة) وعلى الرغم من الانتقادات الحادة التي يمكن أن توجه للساحة الصحفية المصرية في ذلك الحين لمستوى الأداء الحزبي والسياسي في البلاد عموماً فقد ظلت كفة الترجيح تميل لصالح هذه الفترة إذا ما جاء دور المقارنة بالفترة التي أعقبت عام ١٩٥٧ والاتجاه الناصري نحو استيعاب حركة الصحافة المصرية البورجوازية الطابع في تيار الحياة الجديدة المستندة على سيطرة الدولة المطلقة على حركة الفكر والفعل للأفراد والجماعات المختلفة .

وفي حصر حديث قمنا به عن عدد الصحف والمجلات الدورية المرخص بها والمنتظمة الصدور عام ١٩٨٥ تبين أن هناك تنحاز مُر لفترة تأميم الصحافة وهيمنة التنظيم السياسي الواحد (الاتحاد الاشتراكي ثم مجلس الشورى) في مجال الفكر والمتابعة الصحفية المستقلة. فبرغم أن عدد هذه الصحف والمجلات والدوريات قد بلغت ٣٠٨ صحيفة ومجلة ودورية فإن الملاحظ أن معظمها عبارة عن دوريات متخصصة ومحدودة الانتشار سواء لطابعها الإقليمي أو لتخصصها المهني أو العلمي^(٨١) .

جدول رقم (٦٢)

الصحف والمجلات والدوريات المرخص بها والمتظمة الصدور
في مصر وفقاً لدورية إصدارها حتى عام ١٩٨٥

| المجموع | مجلة | صحيفة | |
|---------|------|-------|---------------|
| ١٧ | ١ | ١٦ | يومية |
| ٧١ | ٢٩ | ٤٢ | أسبوعية |
| ٨ | ٢ | ٦ | نصف شهرية |
| ١٢٤ | ١٠٨ | ١٦ | شهرية |
| ١١ | ١٠ | ١ | كل شهرين |
| ٦٠ | ٥٩ | ١ | ربع سنوية |
| ٤ | ٣ | ١ | كل أربعة أشهر |
| ١٠ | ١٠ | - | نصف سنوية |
| ٣ | ٣ | - | سنوية |
| ٣٠٨ | ٢٢٥ | ٨٣ | الإجمالي |

المصدر : المجلس الأعلى للصحافة ، يناير ١٩٨٦

فيإذا اقتربنا أكثر لتوزيعها من حيث التخصص نجد أن معظمها عامة * بنسبة ٦٥٪ تقريباً يليها المجلات والصحف المتخصصة بنسبة ٢٨٪ تقريباً ثم الصحف والمجلات الرياضية بنسبة ٧٪ تقريباً .

ولكن إذا أعدنا التقسيم وفقاً لقلية العناصر النوعية للمقالات على مساحة النشر نجد الصورة كالآتي :

* قسمنا تخصص الصحف إلى ثلاثة مستويات ، العامة ، المتخصصة ، الرياضية على أساس غلبة الموضوعات المنشورة على المجلة والصحيفة كما أعدنا تقسيم الصحف والمجلات العامة إلى سياسية واجتماعية وثقافية الخ وفقاً لسيادة موضوعات معدة على ساحة النشر بهذه المجلة أو الصحيفة .

جدول رقم (٦٣)

تصنيف الصحف والمجلات الصادرة بانتظام
في مصر عام ١٩٨٥ وفقا للموضوعات *

| نسبتها إلى الإجمالي | العدد | |
|---------------------|-------|----------|
| ٪ ٣.٩ | ١٥ | سياسية |
| ٪ ٨.٥ | ٢٦ | اقتصادية |
| ٪ ١٤.٦ | ٤٥ | اجتماعية |
| ٪ ١٥.٦ | ٤٢ | ثقافية |
| ٪ ٥٨.٤ | ١٨٠ | أخرى |
| ٪ ١٠٠ | ٣٠٨ | المجموع |

المصدر : من إعداد الباحث استناداً إلى القائمة المقدمة من المجلس الأعلى للصحافة مرجع سابق .

هذا الخلل في المساحات المحدودة للنشر وعدم التوازن في الأداء الصحفى عموماً ، في وقت تتعرض فيه مصر والوطن العربى بمجمله إلى أخطر هجمة عدوانية شهدها في تاريخه الحديث . نخلص مما سبق أن أدوات الثقافة والصحافة والإعلام الحكومى تمثل أحد أهم أدوات تفريب الإنسان المصرى وزرع روح محبطة ومستسلمة وتعميق شعور اليأس لدى ملايين الفقراء وهو ما يصب في النهاية لصالح المخطط المرسوم لتدمير أى نهوض مصرى ومن ثم عربى لبناء دولة عربية موحدة .

